العرب

تاريخ وحضارة

أنتونى ناتنج • محمود مسعود



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس
سكرتير التحرير : عايدة عباد

العدد ٣٥٠ – ربيع الأول ١٤٠٠ – فبراير ١٩٨٠

No. 350 — February 1980

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

[illegible]

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



العرب

تاريخ وحضارة

•

تأليف: أنتوني ناتنج

ترجمة: محمود مسعود

•

دار الهلال

•

الجزء الثاني



القسم الرابع :

المحنـــة والمنصـــــــر

الفصل الخامس عشر :

الحروب الصليبية

في شهر نوفمبر عام ١٠٩٥ ، وفي مدينة كليرمون بفرنسا ، ألقى البابا اربان الثاني خطابا شديد اللهجة استجابة للنداءات المحمومة المتكررة من الامبراطور البيزنطي طلب المساعدة لطرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، وفي هذا الخطاب نقده البابا خطوات أبعد وحث كافة المسيحيين على القيام والمسارعة لا الى الآناضول فقط بل كذلك الى بيت المقدس لاستخلاص « القبر المقدس » من « الجنس الشرير » . وكان أصداء هذا الخطاب الخطير مواكبا لقيام الفرنجة برد العرب على أعقابهم في اسبانيا واستعادة النورمانديين لجزيرة صقلية . ولكن أوروبا المسيحية كانت الآن بسبيل محادق الاسلام في عقر داره ، وكان خطاب كليرمون يرن صداه في الآذان فشدا العسكرية وخصوصا الفرسان الفرنجة والنورمانديين والبنادقة وأبناء جنوا في اتجاه الشرق في أولى الحملات الصليبية .

والواقع أن كلمات البابا أوربان الثاني قد كانت لها أبعد أثرا من قيام تحالف مسيحي لانتزاع بيت المقدس من سيطرة الشعب الفلسطيني . فعلى الرغم من أنه لم يكن بوسع أحد أن يتنبأ وقتذاك بما سوف يكون ، إلا أنه كان مقدرا لها أن تستهل حربا دامت مائتي عام ،

دون تردد العالم الإسلامي مما بل شمله وتوحد هدفه
على نحو لم تعرفه منذ أيام الفتوحات الكبرى . ويعني هذا
التحدي من جانب دين وجنس أجنبي ، ترتيبا كانت
الروح الانفعالية والإحساس بالمصير لدى المسلمين قد
تعرضت للإنطفاء في خضم المنافسات التافهة والحروب
الأهلية ، مما كان يمكن أن يترك العالم الإسلامي يعني
مصيره المحتوم حينما هبط عليه الخطر الغربي بعد
ذلك بمئة وخمسين عاما . ولكن الحروب الصليبية أتاحت
تبعه صلاح الدين ، وجاءت انتصارات صلاح الدين فيما
بعد على الفرنجة تمهيدا للسلطان بيبرس المملوكي
للإجهاز على الصليبيين بصورة نهائية ورد المغول على
أعقابهم ؛ وبهذا أنقذ الدين الإسلامي وظفر العالم العربي
بقرنين ونصف قرن من الاستقلال النسبي .

وفي أول الأمر أفاد الصليبيون من ميزة المباغتة وسارت
الأمور كما يشتهون . فقد أفضت نزاعاتهم إلى حروب
البيزنطيين في القسطنطينية في ربيع عام ١٠٩٧ واجتازوا
بعد ذلك آسيا الصغرى دون مقاومة تذكر ، ثم تقدموا
إلى طرطوس ، وانتحصروا أنطاكية بعد حصار دام تسعة
شهور ، وقد ساعدتهم في هذه العملية مساعدة كبرى
الجالية الأرمنية التي كان الوالي السلجوقي قد طردهم
منها . ومن أنطاكية واصلوا الهجوم إلى فلسطين ، تاركين
في أعقابهم على ما حدثنا ابن الأثير مئة ألف جثة لقتلى
المسلمين .

وفي السابع من شهر يونيو عام ١٠٩٩ ضربت الجيوش
الصليبية المشتركة وعدتها أربعون ألفا الحصار على بيت
المقدس التي كان دفاع الفاطميين عنها مضمونا بالخاطر ،
وقد استطاعت الحامية المصرية القليلة التي لا تزيد على

ألف من الرجال الأشداء الصمود وصد الغادر مدى خمسة أسابيع ، إلى أن تمكن هؤلاء في الخامس من شهر يوليو من إحداث ثغرة في سور المدينة الشمالي تدفعوا منها إلى بيت المقدس .

وعلى الأثر بدأت مذبحة من أدمى وأقسى المذابح في التاريخ ، ومع أنه لم تنبأ أرقام موثوق بها لمجموع المسلمين الذين قتلوا جميعهم ، فقد ذكر ابن الأثير أن نحو سبعين ألفاً ذبحوا في المسجد الأقصى وحده ، كانوا كلهم من غير المحاربين وبعضهم من الأئمة وعلماء الدين ، الذين التجأوا إلى ما يعد في نظر مؤرخي الحروب الإسلامية حرماً آمناً . وقد أيد المؤرخون المسيحيون صحة هذه الرواية ، وأفاض بعضهم في وصف الفظائع التي ارتكبت من تفنن في القتل والتمثيل بالجثث والتعذيب والحرق .

ولقد استمرت هذه المجازر الدموية أسبوعاً كاملاً في عملية القتل والذبح شملت النساء والأطفال والشيوخ والضباط والجنود والكاثيين والعرب واليهود ، لم يشهد لها التاريخ مثيلاً إلا في الغزوات المغولية ، وبعد أن حرم الصليبيون لعطشهم للدماء شرعوا في تنظيم موقفهم . فالذين صاروا فقط لاستعادة الأماكن المقدسة المسيحية لسيطرة المسيحيين ما لبثوا أن عادوا عائدين إلى بلادهم . ولكن عدداً وافراً أقاموا واستعمروا في فلسطين : ذلك لأنه من بين الجيش الجرار الذي لبى نداء البابا أربان ، جاء العديد من الغلاة وفي نيتهم وضع اليد على إمارات يحكمونها ، واستهدف البنادقة وأبناء جنوا تنمية مصالحهم التجارية ، في حين كان الشغل الشاغل للدهماء منهم مجرد الفرار من الفاقة وقسوة العيش في فرنسا وإيطاليا . وقد وقع الاختيار على

جودفري دي بويون القائد العام الصليبي ليكون ملكا على الدولة اللاتينية لبيت المقدس ، واقترن الاحتفال بتنصيبه بالاستيلاء على حيفا ويافا الساحليتين بمساعدة أسطول البندقية . وتلت ذلك مذبحة بشعة أخرى حينما دعي سكان وحامية حيفا من قبل المنتصرين التجمع حول صليب كعلامة للأمان ، ثم ذبحوا جميعا . ولقد استغرق العالم الاسلامي أربعين سنة أو أكثر لتعبئة جيوشه التحرر ، ولكن هذه الفظائع ، وخاصة مذابح بيت المقدس التي ارتكبت في شهر رمضان المعظم ، لم تجد لها سبيلا الى النسيان أو الصفح من جانب العالم الإسلامي كافة .

وفي السنوات التي تلت ذلك قتل جودفري في المعارك، وعندما أصبح أخوه بلدوين ملكا شدد الصليبيون قبضتهم على سواحل الشام وفلسطين ، فاستولوا على قيسارية وبيروت وصور وصيدا وجبيل وطرابلس ، واستهدف سكانها للقتل أو التعذيب للتخلي عن ممتلكاتهم . وبحلول عام ١١٦٠ كان ملك الفرنجة هو الحاكم المطلق ، وكان مكروها في كل مكان ، من انطاكية حتى العقبة . ولقد قسمت الأراضي التي سيطر عليها الى ثلاثة أقسام : مملكة بيت المقدس ، التي امتدت من بيروت الى العقبة ، وامارة انطاكية ، التي امتدت من اللاذقية الى حدود أرمينية ، ومقاطعة طرابلس . ولم يكن الفرنجة بتقسيم فتوحاتهم على هذه الصورة قد تكفلوا بما تعهدوا به للامبراطور البيزنطي من السماح بعودة أنطاكية الى الروم لقاء مساعدتهم لهم . وهكذا عاد الروم الى آسيا الصغرى وهم يجترون سخطهم ، تاركين حلفاءهم الفرنسيين الغادرين يعملون بغير عون منهم . وما لبث الفرنجة أن استقروا في الأراضي التي غزوها كما فعل المستعمرون

الفرنسيون في الجزائر في القرن التاسع عشر ، وكانوا
ما كانوا يغتصبون لأنفسهم كل متر مربع من الأرض
ويجردون الفلاحين من كل شيء ، ويكرهون النساء
العربيات على الزواج المختلط والخروج على دينهن .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الفظائع وأعمال
النهب والسلب التي ارتكبها الصليبيون ، لم يرتفع اصبع
واحد في بغداد لمد يد النجدة الى فلسطين أو الشام .
وفي مصر احتفظ الوزير الفاطمي الأفضل بجيشه في
البلاد ، ولم يزد عن ارسال اسطوله أحيانا لمناوشة
الأساطيل الصليبية المحاصرة للمدن الساحلية . ومع ذلك
فان الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون لم تكن بمنجاة
من الهجوم والضرب اذا انقضت عليها قوات مرنة بحزم
وتصميم ، بسبب افتقارها الى أي دفاع في العمق .
فباستثناء الرها فيما وراء نهر الفرات في شرق ارمينيه
وبيت المقدس ، كانت جميع البلدان والمدن في أيدي
العرب . ذلك لأن دمشق وحلب وحمص وبعلبك وحماة
لم تستهدف قط لأي تهديد خطير ، دع عنك غزوها
الفعلي ، وكانت تشكل سلسلة قوية من القواعد لأي
هجوم مضاد ضد عدو لا يبعد عنها بأكثر من مسيرة يوم .
ولكن لم يزحف أحد من عاصمة العباسيين . وحتى عندما
سقطت بيت المقدس وذبح سكانها فان الوفد الذي سعى
الى الخليفة لطلب النجدة وجد كل من كانوا في بغداد
يبكون ولكن لا أحد منهم يتقدم لشن الحرب بسبب
ما أصاب أخوانهم . ان الأمراء السلاجقة المتنازعين في
الماضي قد خانتهم الشجاعة للقتال ، الا فيما بين بعضهم
مع بعض . ولعل الصورة تبدو على أوضحها لما أورده
ابن الأثير ، من أن الفرنجة قد ظفروا بفتوحاتهم بسبب
الانقسامات التي كانت قائمة بين المؤمنين ، قال الجبرتي

الاسلامية وقادتهــا كانوا في حروب دائمة بعضهم مع بعض ، وكانت اتجاهاتهم متعارضة ، واهدافهم متشعبة ، ومواردهم المالية محدودة .

وكانت النتيجة ان مقاومة المسلمين ظلت مقصورة في مدى نحو خمسين عاما على غارات فردية من جانب القبائل العربية التي كانت امدادها واسلحتهــا بادية العجز ازاء معاقل الصليبيين المنيعة ، ولكن احتكار الصليبيين للقــوة ما لبث في عام ١١٤٤ أن تلقى ضربة عنيفة حينما قام عماد الدين زنكي حاكم الموصل بمحاصرة الرها الموقع المتقــدم الشرقي للصليبيين والاستيلاء عليها ، وبهــذه الضربة العنيفة زال السلطان الاسقفي المسيحي من الشام والعراق ، وفضــلا عن ذلك فان انتصار زنكي كان ايذانا ببداية النهاية لحكم الصليبيين في فلسطين وقرب الشام ، وبدء العمــل لتحقيق نصر المسلمين الذي قــدر ان يتم بانتصارات صلاح الدين الأيوبي .

والواقع ان عماد الدين زنكي قد اقترن اسمه بالعمل على تأسيس مملكة لنفســه على حساب السلطنة السلجوقية المتهاوية ، وقد نجح في اتســاع السلطان بمنحه تفويضا للعمل في جميع أنحاء الشام ؛ الأمر الذي مكنه من دخول حلب ثم حماة ثم بعلبك . واذا كانت مطامعـــه قد توقفت باغتياله في عام ١١٤٦ ؛ فان ابنه وخلفه نور الدين الذي كان في مثل دهاء أبيه قد ظفر في عام ١١٥٤ بالسيطرة على دمشق أيضا بعد ايهام أهلها بأنه جاء لانقاذهم من هجوم قريب للفرنجة . ولقد عمل نور الدين على توسيع امبراطورية أبيه على حســـاب الصليبيين ، حتى لقد تمكن في مدى عشر سنوات من

السيطرة على الشام كلها ، باستثناء انطاكية .

لكن . بينما كان نور الدين يكتسح كل شيء امامه في الشمال ، كان الفرنجة يداون تهديدا جديدا في الجنوب . فان عسقلان القاعدة البحرية للفاطميين [illegible] سقطت في أيديهم ، مما فتح امامهم الطريق الى مصر . ورافق هذا كله ان املريك ، ملك بيت المقدس الجديد اراد امتلاك مصر ، حتى ولو كلفه انطاكية . بيد ان املريك لم يكن وحده الذي يريد مصر ، اذ كان نور الدين يشتهي بدوره ان يضيفها الى ممتلكاته ، وبوصفه سنيا متحمسا كان يريد القضاء على السلالة الفاطمية في القاهرة وعلى هرطقتها الشيعية . وقد سنحت له الفرصة في عام ١١٦٤ حينما التجأ اليه في حلب وزير فاطمي مخلوع يدعى شاور لكي يعيده الى منصبه بثمن هو ثلث موارد مصر ، مع الاعتراف لنور الدين بالسيادة . وبعد الموافقة على النصيحة ارسل نور الدين جيشا بقيادة اكفأ قواده وهو اسد الدين شيركوه ايوب .

كان شيركوه واخوه نجم الدين ايوب من عائلة كردية في شمال العراق وقد خدما طويلا حكام الموصل وحلب . ولكن حملته الى مصر مع شاور كانت تقضي عليه . فبعد ان هزم الوزير الحاكم وأعاد شاور الى مكانه ، نكث هذا بعهده لنور الدين ورفض الاعتراف له بالسيادة . فكان رد شيركوه ان احتل بلبيس على دلتا النيل لكي يجعل منها قاعدة له ، واذا بشاور يستنجد بالصليبيين ويغريهم بالمال ، ولم يكن « املريك » بحاجة الى اغراء ، فقد زحف الى مصر من فوره ، وبعد حصار دام ثلاثة اشهر اضطر شيركوه الى الانسحاب من مصر [illegible] يوما .

وبعد عامين تكررت عمليـــات الكر والفر والهجوم والانسحاب ، لقد سعى شيركوه الى دخول مصر مرة ثالثة بامر نور الدين ، لصده لتحالف شاور مع املريك ، ورابط بجيشه قرب هرم الجيزة الاكبر فى مواجهة قوات شاور واملريك المشتركة ، لم تمكن شيركوه من استدراج الفاطميين والصليبيين الى معركة كمن لها وهزمهم فيها ، ولكنه اخطأ حين عدل عن احتلال القاهرة واختار الطريق الاسهل وهو احتلال الاسكندرية التى رحب به اهلها كراهية لشاور وحلفائه الصليبيين . فتقدم املريك الى محاصرة المدينة بمساعدة الاسطول الصليبى ، وفكر شيركوه ونجح فى التسلل من الاســـكندرية مع الجزء الاكبر من جيشه فى محاولة لاســـتدراج المحـــاصرين ومهاجمتهم من الخلف ، وابقى فى المدينة حامية صغيرة من الف رجل مع امر منه بالصمود اطول مدة ممكنة ، ولكن قبل ان امكن اتمام المناورة اصبح مركز الحامية فى وضع بالغ السوء ، وفى اغسطس عام ١١٦٧ اضطر شيركوه الى عقد هدنة مع الصليبيين .

كان قائد حامية الالف رجل الشاب العامرين ابن نجم الدين ايوب ، صـــلاح الدين يوسف بن ايوب ، المشهور باسم صـــلاح الدين ، البالغ من العمر وقتذاك تسعة وعشرين عاما ، لقد كان هذا الشاب المنطوى ذو الابتســـامة الجذابة التى كانت تلطف الى حد ما من مسحة الكآبة فى قسماته ، اكثر اهتماما بعلوم الدين منه باى شأن اخر ، وعندما امر عمه شيركوه على ان يرافق حملة شاور الى مصر ، لم يكن باى حال متلهفا للمشاركة فى هذا الزحف الشاق المشكوك فى جدواه ، ولم يكن معنى ذلك انه كان يفتقر الى البسالة ، وانمـــا كان يتصف ببسالة ، وهو الذى قدر له ان يحقق نجـــاحا عسكرية

مستقرة ، انه كان أحد الفصول المحزنة في التاريخ عموما من الحرب .

ولقد ابدى صلاح الدين كما يبدو من المناقشات التي تلت سقوط الاسكندرية موهبة نادرة في الدبلوماسية وابتهاجا شديدا للتفاوض كوسيلة لتسوية المنازعات . ذلك انه برغم ضعف موقفه تمركزه العسكري في هذه النقطة ، فقد امكن بمساعدة صلاح الدين من الحصول على أفضل ما يمكن في هذه المفاوضات . فانه وان كان قد اضطر الى الموافقة على الانسحاب بقواته ودفع جزية الى ملك الفرنجة النزيع في بيت المقدس ، فقد حصل في مقابل ذلك على جلاء معظم الجيش الصليبي من مصر ، لقد كانت هذه المفاوضات فاتحة اتصالات صلاح الدين بالقادة الصليبيين ، ولقد بلغ من شدة اعجاب (أماريك) واركان حربه بما علموه منه من رقي التعامل والتحضر انهم انعموا عليه برتبة فارس شرفية .

ولكن على الرغم من كل هذه المداهنة فان صلاح الدين وشيركوه كانا يعلمان جيدا ان انسحاب (أماريك) من مصر انما هو خدعة لتخدير خصومهم المسلمين وربما بعد الهجوم جديد . وفعلا لم تمض أشهر قلائل بعد توقيع المعاهدة حتى عقد (أماريك) اتفاقا مع الامبراطور البيزنطي قضى بتقسيم مصر فيما بينهما ، ثم زحف بنفسه الى القاهرة .

ولقد ابدت جيوش الفاطميين مقاومة باسلة عند بلبيس ، ولكنهم هزموا بسبب التفوق العددي للمهاجمين الذين اعملوا سيوفهم ذبحا في رقاب اهل المدينة مسلمين والباقيا ، وتقدم (أماريك) في زحفه لكي يتقبل استسلام القاهرة .

وهنا لم يطق نور الدين صبراً ، فمرة أخرى أرسل شيركوه وصلاح الدين الى مصر مع جيش قوامه ثمانية آلاف من الفرسان وأوامر قاطعة بوضع حد للحكم الفاطمي والاحتلال الصليبي . وبعد مناورات ودسائس شتى من جانب (أماريك) وشاور تمكن شيركوه في عام ١١٦٨ من دخول القاهرة دون مقـــــاومة ، بين مجالي التكريم من جانب الخليفة الفاطمي .

ومن عجب أن أماريك تقبل هذه النكسة وانسحب من مصر الى غير عودة فقط . وفي خلال ذلك عمل شيركوه على تثبيت نفسه كحـــاكم مصر الفعلي ، وانتهى الأمر بالخليفة الى تعيينه وزيراً ، بالاضافة الى لقب القـــائد العام .

ولكن لم يطل العمر بقائد نور الدين اللامع لكي ينعم بثمار حملاته الدائبة ، لقد توفي بعد شهرين ، وخلفه صلاح الدين في منصب الوزارة . وهكذا انتقل حكم مصر الى هذا الشاب الهادئ صلاح الدين ، الذي قال عندما صدر اليه الامر بمرافقة حملة شيركوه الأخيرة : « لابد لي من الطاعة ، ولو أنني لو دفعت الى المملكة ذاتها لما رجعت طائعاً اليها بعد البلايا التي لاقيتها في حصار الاسكندرية » .

الفصل السادس عشر :

انتصار صلاح الدين

منذ الآن فصاعدا انتقل مركز القوة في العالم الاسلامي الى مصر ، حيث ظل فيها الى ان هزم الاتراك العثمانيون السلاطين المماليك وتحول الى القسطنطينية بعد ذلك بثلاثمائة وخمسين سنة . وكانت بغداد خارج الحساب . وعلى الرغم من ان نور الدين قد رد صعود الصليبيين في الشام الى الوراء ، فانه كان محزونا بوجود الدولة اللاتينية الصليبية في فلسطين الى جانب منه ، والدولة العباسية العنيدة في العراق في الجانب الآخر . مصر فقط كانت لديها الموارد وحرية المناورة اللازمة لهزيمة الهيمنة الفرنجية على فلسطين . ومن اجل هذه الغاية كرس صلاح الدين نفسه الآن . لقد اقلع عن كافة المسرات ونذر ان ينتزع بيت المقدس من الفرنجة ويؤسس لنفسه اسرة حاكمة سنية في مصر .

بيد انه اضطر خلال العامين الاولين الى ان يسير بحذر . فمن ناحية كان مدينا بقوته الى نور الدين ، الذي كان جنوده الشاميون يشكلون صلب جيشه ، ومن ناحية اخرى كان بوصفه وزيرا لمصر مدينا بولاء اسمي للخليفة الفاطمي ، الذي كان نور الدين يروم القضاء عليه وعلى الهرطقة الشيعية التي يمثلها .

ثم توفي العاضد الخليفة الفاطمي الرابع عشر والأخير ، وعلى الأثر نودي بصلاح الدين سلطانا على مصر ، وهكذا تحقق واحد من أحب مطامحه . وبزوال العاضد فقد الشيعة آخر أمل في توطيد مكانتهم كأصحاب المذهب الحاكم في الإسلام . ولم يبق للشيعة من نفوذ إلا في جنوب العراق مسرح استشهاد الحسين ، وفي فارس التي اتخذ منها العلويون ناحية لهم منذ أيام علي الرضا وعبد الله ابن ميمون مؤسس الطائفة الإسماعيلية ، وفي اليمن التي أصبحت الملجأ الأخير للقرامطة ، وفي كل مكان آخر من العالم العربي بقي المذهب السني هو السائد .

وكان نور الدين يتوقع الآن بعد أن ظفر صلاح الدين بسلطنة مصر أن ينضم إليه لسحق الفرنجة ، لكن صلاح الدين لم يكن يريد أن يستعجله أحد . فعلى الرغم من أنه كان مستعدا لإزعاج مواقع الحدود الصليبية في غزة ، إلا أنه لم يكن مستعدا للقيام بحملة كبرى . ولكن نور الدين لم يلبث أن نفد صبره وهدد بغزو مصر ذاتها وتأديب تابعه العاق . وبينما كان يعد لهذه الحملة فاجأته المنية في شهر مايو عام ١١٧٤ وهو في دمشق ، مصابا بالتهاب حلقي في اللوزتين .

كانت هذه في الحق ضربة حظ مزدوجة لصلاح الدين فقد خففت من الضغط عليه لمهاجمة الصليبيين قبل أن يتم استعداده ، وفتحت أمامه الباب للعمل على ضم الشام إلى سلطنته بخلافة الصالح إسماعيل لأبيه نور الدين وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره . ولكن بينما كان صلاح الدين يتدبر هذه الخطوة سبقه أملريك وعقد معاهدة هدنة مع الوصي على الصالح إسماعيل . وبعد شهرين من توقيع المعاهدة وقبل قيام الفرنجة بتعبئة

تراخم للهجـــــــوم على مصر ، لولى ا الملوك ا ثالث بالدوسنطاريا . وهكذا تغيرت الصورة كلها لما لا يحاول لعاقبة اسابيع . لقد غدا منافساه الرئيسيان ـ المسلم والمسيحي ـ في عداد الأموات ، وتركا صلاح الدين القوة والشخصية المسيطرة في الشرق الأوسط . واصبحت الشام ؛ وهي بلا قيادة تثير الشهية لشهية الأجناد ، وغدت دولة للسلطين الصغيرة متفككة بفعل الصراعات بين سلسلة من الملوك المرضى أو الضعاف .

والواقع أن هذا التغيير المرائي المفاجىء قد عكس نفسه في مسالك صلاح الدين ، لا تخلو من حكمه السابق : وأقبل على هذه الفرصة يمسكها بكلتا يديه . فقد خف الى دمشق استجابة لدعوة من امراء الشام المتلهفين من الوصي العادل ، حيث انضمت اليه العامة الشامية كرجل واحد . وعندما هرب الحاكم الصبي الى حلب مضى السلطان صلاح الدين واستولى على حماة وحمص وبعلبك . وفي النهاية وافق صلاح الدين على مرض من الصــــــالح بان يترك له حلب ، وليتبع باقي ممتلكات نور الدين في الشام .

وخلال السنوات الثلاث التى انقضت منذ ان استولى صلاح الدين على دمشق ، كان رد الفعـــــل من جانب الصليبيين حليا بصورة غريبة ، وقد استطاع صلاح الدين ان يعرف عن طريق بعض عيونه ان الصليبيين قد انقسموا على انفسهم انقساما عنيفا . فان المرارة التى تولدت بين الفرنجة والروم بسبب انطاكية قد تطورت الى عداء سافر ، واخذ الفرنجة في العهد الاخير يتازمون فيما بينهم . يضاف الى هذا أنهم كانوا فى حاجة الى تعزيزات لهم بعد أن سئم الكثيرون منهم يعادوا الى ديارهم .

هكذا بدأ صلاح الدين بمحاولة من مصر للاستيلاء على بيت المقدس ، ولكنه عند اجتياز الحدود قرب عسقلان فرق جيشه للبحث عن علف ، دون أن يبقى منه سوى حفنة من الجنود والمماليك ، فكانت هذه الغلطة تكلفه حياته ، اذ تعرض لهجوم مباغت من حامية عسقلان ، ولم ينقذه سوى شجاعة ابنه الأصغر الذي غطى انسحابه وهو يصد الفرنجة الى أن تمكن والده من الافلات .

كانت هذه النكسة تنال من ثقة صلاح الدين ، حتى عاد ثانية الى التزام حذره السالف . ولكنه بعد سنة عاد الى الهجوم من الشام فظفر بنصرين حاسمين في ربيع عام ١١٧٩ . وبعد سنة اخرى طلب الفرنجة هدنة ، وكان بوسع السلطان صلاح الدين أن يجهز عليهم في هذه المرحلة ، ولكن الجفاف المستمر الذي حل بأجزاء كثيرة من الشام وفلسطين وأدى الى مجاعة ، أثار خوفه من أن يؤدي استمرار القتال الى استنزاف موارد السكان المحليين ، وهكذا وافق على وقف اطلاق النار . (١)

ولكن حدث في عام ١١٨١ أن رينو دي شاتيون أحد الامراء الصليبيين نقض الهدنة بالاغارة على احدى قوافل المسلمين . ولقد مال صلاح الدين أول الأمر الى تسوية الموقف سلميا على أساس اعادة الاسلاب التي نهبها الصليبيون والامتناع عن مهاجمة قوافل المسلمين ، ولكن بعد انقضاء اثنى عشر شهرا في المراوغة من جانب الصليبيين ، وبعد أن اقتنع صلاح الدين بأن رينو دي شاتيون يرنو بأنظاره الى مكة والمدينة ، قرر ألا يصطبر أكثر من هذا القدر ، وفي مايو عام ١١٨٢ زحف من مصر لآخر مرة لمحاربة الفرنجة .

وقبل أن يبدأ الهجوم الفعلي عمل على تأمين ظهره

من اى تهديد شاتى من جانب السلجوقيين ، فاستولى على الموصل وارض الجزيرة بين نهرى الدجلة والفرات . ثم استولى على حلب بعد أن توفى « الصالح » قبل ذلك بفترة قصيرة ، ورغبـــة فى توفير الأمن لمرور الحجاج المسلمين والقوافل التى كان رينو الغادر يداوم الانقضاض عليها ، فقد هاجم قاعدة رينو فى الكرك فى نوفمبر عام ١١٨٣ ، ولكن القاعدة كانت قوية التحصين حتى دام حصارها عاما . وبعد ان عرفي الفرنجة هدنة اخرى خل صلاح الدين بسبب مرض الم به ودام شهورا عدة ، وبعد شفائه علم ان رينو نقض الهدنة وعاود الهجوم على قوافل المسلمين . وهنا اقسم صلاح الدين ان الهدنة لن تجدى نفعا بعد ان استغل الصليبيون صبره الى ابعد حد . وهكذا دقت ساعة الثأر ، واقسم صلاح الدين ان يقتل رينو بيديه ، واعلن الجهاد ضد الصليبيين .

وبحلول شهر يوليو عام ١١٨٧ تجمعت دعوة الجهاد اكبر جيش لقائد صلاح الدين فى اى وقت مضى ، وعلى راس هذا الحشد الجرار عبر السلطان نهر الأردن الى شمال فلسطين واستولى على طبرية . وبهذا أصبح بيت المقدس معزولا من اى تعزيز بحرى من طرابلس وانطاكية ، واصبح الصليبيون مضطرين الى اختيار الوقف الصعب : فاما الخروج للقتال ومواجهة صلاح الدين ، واما البقاء فى بيت المقدس وانتظار الحصار . وبعد مشاورات بين « جى » ملك بيت المقدس ورينو دى شاتيون ، تقرر تحت رغبة الاول الخروج لمحاولة استعادة طبرية . ولم يكن ثمة افضل من هذا القرار للوقوع بين يدى صلاح الدين ، اذ بدلا من اضطراره لمواجهة حشود القوات الصليبية فى داخل مدينتهم المحصنة ؛ كان بوسع السلطان الآن ان يختار ارض المعركة الملائمة له .

كان هذا الموقع قريب قرية بين التلال المحيطة ببحيرة طبرية تدعى حطين ، ومنحدراتها تتراءى الخضرة والمياه الوفيرة عباب حطين لدواب المسلمين ميزة معنوية وعسكرية قوية على الفرنجة ، ذلك أن حرارة جولية كانت خانقة ، وبعد أن اضطر الفرنجة الى سير شاق تبلغ بحيرة طبرية فقد أصبحوا يكابدون عذاب العطش ، وكان عليهم للوصول الى مياه البحيرة التي لاحت لأنظارهم أن يعبروا معسكر صلاح الدين الحصين . وهنا انقسمت آراء الصليبيين وهم يتخذون مراكزهم في الثالث من شهر يوليو فوق الهضبة الجافة ، بين القرية وتل مسنين يعرف باسم قرون حطين . فبعضهم رأى اختراق خطوط المسلمين للوصول الى البحيرة وبعضهم ممن كانوا أكثر اعياء منهم عطشا رأى الركون الى الراحة ليلا . . ثم الملك (جى) بالتوقف . وانتهز المسلمون الفرصة فاشعلوا النار في الشجيرات الجافة المحيطة بالهضبة ، مما جعل الدخان يتدفق الى خيام الصليبيين فيخنق ويعمي من فيهما ، وفى صدور أحاط جيش السلطان بمعسكر العدو .

وعند طلوع النهار بدأ هجوم المسلمين . ولم يكن للعطش لم يفكر مشاة الصليبيين الا في الوصول الى البحيرة ، ولكن رجال صلاح الدين ردوهم على أعقابهم فيما بين اللهب ودخان الشجيرات المحترقة . وقد راع فرسان الفرنجة يقاتلون ببسالة رائعة : بيد أنهم كانوا مثل زملائهم المشاة يعانون وطأة الحرارة والعطش ، وبدأت قواهم تخور والمسلمون يدفعونهم دفعا الى منطقة الأرض . وبينما تحطم هجومهم الأخير على الجدار المحيط بهم من رماة السهام وحملة السيوف المسلمين ، أصدر صلاح الدين أمرا الى قواته بالاطباق

على الصليبيين المتعطشين الذين انهزمت روحهم المعنوية . وبهذا الهجوم تحقق الصليبيون ان تحطموا ولاذوا بالفرار . وبعد ان رأى صلاح الدين آخر جنودهم وهي خيمة الملك الخرجزية تهوي ؛ لم يتمالك ان وثب من فوق جواده وبكى من فرط الفرح والابتهاج .

وعندما انصرم اليوم المدوى لم يبق من الفرنجة على قيد الحياة سوى حفنة ، وتكدست سـاحة المعركة بعشرات الألوف من الموتى والخيل الصريعة . ويروى ابن الاثير انه بعد عام من ذلك عندما حصدت الوحوش والجوارح محصولها الشنيع ، كانت ساحة القتال في حطين ما تزال مكدسة من العظام ! . وقد اسـتدعى الملك جي ورينو دى شاتيون وجيء بهما الى خيمة القـائد المنتصر وسقى صلاح الدين الملك برلة ولطف ، ولما رأى شدة عطشه تدم له ماء مبردا ؛ ولكنه انصب على رينو ودمغه في صوت قاصف بخياناته واعمال السلب والنهب التي كان يرتكبها ؛ ثم اهوى على عنقه بضربة سيف فصلت رأسه عن جسده . وقد قبل الملك جي الرعد ان حياته سيبقى عليها ، ولكن التعليمات اعطيت بالاعدام مائتين من الفرسـان الذين ساعدوا رينو في اعماله الغادرة ، اما باقي الأسرى فسمح على منهم ؛ وسمح للكثيرين منهم بالعودة الى بلادهم .

اصبح لصلاح الدين الآن على الجيش الوحيد القادر على الحرب ؛ وعندما اخـذ في اتمام عمليـات التطهير في باقي فلسطين سلمت عكا دون قتال ؛ ولم تقاوم نابلس سوى بضعة ايام ، وسقطت يافا في يد الجيش العادل الذى تحرك من مصر . كمـا سقطت صيدا ، وبعدها بيروت وجبيل . ولم تتعرض طرابلس للهجوم

بسبب معاهدة سرية بين المسلمين وحاكمها الصنهيي أدت الى وقوفها موقف الحياد . وقاومت صور طويلا حتى تجاوزها صلاح الدين في زحفه صوب الشمال . وفي النهاية استسلمت عسقلان في الجنوب المصريين ، وتبعتها غزة وبيت لحم . كان صلاح الدين الآن يملك او يسيطر على الساحل الصليبي كله من الشام الى مصر ، ولم يبق امامه بعد ان اصبح بيت المقدس معزولا عن كل نجدة من الخارج سوى ان يتحرك نحو المدينة المقدسة .

وعندما وصلت قوات المسلمين امام ابواب بيت المقدس فوجئوا بوجود عدد من الرجال فوق أسوار المدينة اكثر بكثير مما كانوا يتوقعون بعد القضاء على جيش الصليبيين عند حطين . واتضحت من داخل استحكامات جيدة مدربة افقدت أي المدينة قسوة التحصين . وقد طوق صلاح الدين المدينة خمسة أيام قبل أن يقرر مهاجمتها من الجانب الشمالي . ثم استخدم المهندسين لدك الأسوار ونسف التحصينات من أسفل . واعقب ذلك معركة دموية تمكن المسلمون بعدها من فتح ثغرة في الأسوار . وبينما كان المحاصرون يتقهقرون الى الداخل عرض الفرنجة التسليم بشروط ، تردد صلاح الدين أول الأمر اذ كان قد نذر أن يأخذ المدينة بحد السيف وذكر الفرنجة بالفظائع التي ارتكبوها عام ١٠٩٩ . ولكن باليان حاكم بيت المقدس هدد بحرق المدينة وألا يبقى فيها أحد على قيد الحياة مسيحيا كان أو مسلما ، حرا أو اسيرا — اذا اصر صلاح الدين على اقتحام بيت المقدس . فقبل صلاح الدين شروط الفرنجة نظير فدية جرى الاتفاق عليها يدفعها الصليبيون في مدى اربعين يوما .

هكذا عاد بيت المقدس الى حظيرة الاسلام بعد ثمانية وثمانين عاما من الاحتلال المسيحي . وقد أنزل الصليب الذهبي الذي نصبه الفرنجة فوق قبة الصخرة التي اقامها عبد الملك وسط صيحة الفرح المدوية من جانب النظارة المسلمين ؛ وأعيدت الآثار الاسلامية التي نقلت حرمتها الى المسجد الأقصى ، ولكن بينما عادت العادة الاماكن الاسلامية المقدسة : لم يسمح صلاح الدين بأي مساس بالمباني . وطبقا لشهادة المؤرخين المسيحيين ، فقد صدرت اوامر صارمة الى كافة الجنود المسلمين بصيانة ارواح المسيحيين وممتلكاتهم ، ولم يتعرض مسيحي واحد للمضايقة بسبب دينه — وهذا تناقض جدير بالتنويه بالقياس الى الفظائع التي ارتكبها الفرنجة قبل ثمانية وثمانين عاما .

وما كان الفرنجة ليستحقوا ما عاملهم به صلاح الدين من شهامة . وكما يقول السير ستيفن رنسيمان في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » ، فانه بسبب مسلك البطل الذي سلكته سلطات الكنيسة ، لم يتم جمع اموال الفدية ، مما ترتب عليه تهديد ألوف المسيحيين بالبيع في سوق الرقيق . ولكن عندما دفع باول مجموعة وكانت مؤلفة من ألف فرد ، توسط لهم العادل أخو السلطان ، وعندئذ أمر صلاح الدين باخلاء سبيل جميع المسنين الذين لم تدفع عنهم الفدية ، وبخفض مجموع الفدية الى جزء من المبلغ الأصلي . وعندما تخلف الفرنجة رغم ذلك عن الدفع ، أطلق صلاح الدين جميع المتزوجين والأرامل والأيتام ، وساعد المحتاجين منهم نقلا من بيت المال . وكما يقول رنسيمان : « لقد انتظر صلاح الدين عدة قرون حتى دخل أبواب بيت المقدس للاذلال

الذي كان في الحرب الصليبية الأولى ، وانظر كيف يتمثل الانسان الكريم بانتصاره * .

أحدث الاستيلاء على بيت المقدس وفلسطين رد فعل عنيف في أوروبا . فقد أبحر على الفور فردريك بربروسا ملك المانيا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب ملك فرنسا في الحرب الصليبية الثالثة . ولكن هذه الجيوش الوطنية الثلاثة ، بسبب افتقارها الى أي نظام مركزي للقيادة ؛ اتجه كل منها وجهته الخاصة . فقد انحرف ريتشارد لغزو قبرص ، واستهدف فردريك بربروسا الذي سلك طريقه خلال البلقان الى الازعاج من جانب السكان المحليين ؛ وعند وصوله الى آسيا الصغرى وجد الأتراك السلاجقة أصلب عودا مما كان يتوقع . واكتمالا للمصائب التي نزلت بالألمان غرق فردريك نفسه وهو يعبر نهرا في طريقه . وبسبب هذه العوامل جميعا فان الهجوم الصليبي المضاد تعرض للتأخير ، ولم يحدث الا في منتصف عام ١١٨٩ أن أصبح الافرنج في موقف سمح لهم بمهاجمة أراضي المسلمين .

ومرة أخرى فان صلاح الدين الذي يفضل الكلمات على الحرب عرض التفاوض ؛ وتدليلا على حسن نيته أطلق سراح الأسرى الصليبيين بما فيهم الملك (جي) ، بعد أن أقسموا أنهم لن يحملوا السلاح ضده . ولكن رد الصليبيين الوحيد كان الاصرار على اعادة فلسطين كلها اليهم ، بما فيها بيت المقدس . وسحب السلطان الكامل جيشه الى مصر ، ولما أعقب هذا تحرك ضد عكا ، قاده (جي) الذي نكث بقسمه حالما استرد حريته (جمع جيشا يرغي انتصارا على المدينة . فاندفع صلاح الدين بقواته الى الشرق ، وكان على وشك أن يرفع الحصار عندما وصلت مراكب صليبية أخرى من طريق صور ،

الميناء الوحيد على البحر الأبيض المتوسط الذي كان يعمل المسلمون على الاستيلاء عليه .

ان هذه النقطة الاستراتيجية تفسر ان تكلف السلطان غالي في الشهور التالية . فان الصليبيين باستحواذهم على هذه الثغرة الحيوية في دفاعات المسلمين ، اتخذت قواتهم ومؤنهم تتدفق الآن من خلال صور . وباستخدام الميناء كقاعدة بحرية ، فرضوا حصارا بحريا حول عكا ، واحتشد الآن جيش مسيحي جرار خارج أسوار المدينة المحاصرة . وعلى الرغم من انه بين حين وآخر كانت تنجح سفينة من مصر في اختراق الحصار وجلب الطعام الى الحامية المسلمة ، فان المجاعة بدأت تحدث تأثيرها تدريجيا في الأرواح والقوة . ومع ذلك فان عكا ظلت صامدة مدى ثلاثة وعشرين شهرا كاملة (الى ان استسلمت الحامية منهكة من الجوع والاعياء في شهر يوليو عام ١١٩١ الى المحاصرين ، وكانوا الآن بقيادة ريتشارد ملك انجلترا . وكانت الشروط في الواقع مطابقة للشروط التي قبلها صلاح الدين لاستسلام مدينة القدس — وهي دفع الفدية في مقابل الإبقاء على أرواح وحريات اللاجئين من عكا . لكن قبل ان يتمكن المسلمون من تنفيذ الصفقة (ما لبث ريتشارد ان انكرها بدعوى ان الاسرى المسيحيين معهم لم يطلق صلاح الدين سراحهم ، ثم خرج في ذبح حامية عكا كلها بما فيهم نساؤهم وأطفالهم . وبرسوخ قدم الصليبيين في عكا وصور فقد انتشروا على طول الساحل جنوبا تسانده اساطيله . وقد تقدم ريتشارد للاستيلاء على يافا وعسقلان ، ولكنه خاف ان يضرب في الداخل في اتجاه بيت المقدس بعيدا عن قواعده الساحلية . وهكذا بدأت فترة طويلة من المفاوضات سعى فيها الملك الانجليزي الى ان ينال بالدبلوماسية

ما خشي أن يناله بالمعرة . ولكن المفاوضات كانت تتعثر بسبب مطلبين لا سبيل الى التوفيق بينهما : فصممـه أصر ريتشارد على أن يتنازل صلاح الدين عن فلسطين كلها . وأصر صلاح الدين على انسحاب ريتشارد من عسقلان ، التي كانت في أيدي الصليبيين بمثابة خنجر موجه الى قلب مصر . ثم تحطمت المفاوضات في النهاية ، واستؤنف القتال في مايو عام ١١٩٢ . وقد زحف ريتشارد الى أسوار بيت المقدس ؛ لكنه لم يكن مصمما في دخيلة نفسه ، ولم يلبث لدى مجابهته لإصرار المسلمين على المقاومة أن سارع بالانسحاب ، خوفا من هزيمة قد تحل به وخسران الجند وهو يحاول أخذ ما كان يعرف أنه لن يستطيع الاحتفاظ به على الدوام . ثم استؤنفت المفاوضات من جديد ؛ ولكن دون نجاح .

وفي خلال ذلك كان صلاح الدين يعلم أن ريتشارد يعتزم العودة الى انجلترا . وفعلا لم يحل شهر سبتمبر الا وقد شعر ريتشارد أنه لا يستطيع تأخير رحيله أكثر من هذا القدر . وهكذا عقدت اتفاقية يترك بمقتضاها صلاح الدين للصليبيين الساحل من صور الى يافا ؛ بما في ذلك حيفا وقيسارية وعكا . واحتفظ صلاح الدين بباقي فلسطين ، وظفر بعسقلان التي دمرت فيها المنشآت العسكرية على الفور لئلا يتراجع الصليبيون عن الاتفاقية ويستولوا على المكان من جديد وهو شديد القرب من الحدود المصرية . وقد كفلت الاتفاقية الحرية للحجاج المسيحيين والمسلمين لزيارة أماكن العبادة في بيت المقدس .

واذا كانت شروط الاتفاقية قد تركت موقف المسلمين أضعف عما كان عليه بعد الاستيلاء على بيت المقدس قبل ذلك بخمس سنوات ، فانهـا كانت نصرا دبلوماسيا

لصلاح الدين الذى ضمن جلاء الصليبين عن عسقلان ونحو خمسين ميلا الى الشمال .

فبعد التوقيع على المعاهدة بخمسة اشهر وبوفاته الى دمشق وافاه الأجل المحتوم فى الرابع من شهر مارس عام ١١٩٣ ، ودفن فى القلعة المجاورة لجامع الوليد بين الحزن والبكاء .

كان صلاح الدين فى حياته مؤثرا للبساطة والاقتصاد فى كل شىء ؛ ولم يترك خلفه اكثر من حفنة من النقود وقطعة ذهبية واحدة وبعض الملابس البسيطة . ولم يستحوذ لنفسه على شىء سواء من بيت مال الفاطميين أو من تركة نور الدين . ولم تعرف القسوة طريقها اليه الا عندما كان يواجه الخيانة والغدر . وبخلاف عادة نقد كان ارق الأبطال واشد المحاربين نفورا من الحرب . كان على الدوام ينفر من الالتجاء الى الحرب اذا كانت الحكمة والمفاوضات يمكن ان تحقق غرضه بنفس القدر ، واكثر من هذا فانه على النقيض من بعض المعاصرين المخادعين من أمثال رينو دى شاتيون وريتشارد قلب الأسد ؛ كان اذا وقع معاهدة ظل على الوفاء بها .

ولم تتهيأ لصلاح الدين الفرصة لكسب امبراطورية مثل الوليد او لتحقيق تفوق ثقافى مثل الأموى ؛ ولكنه عندما استنهض الشعوب الاسلامية للاجتماع ودعتهم للهجوم عليه ، فانه جمع العالم العربى وحده من النيل الى دجلة ضد عدو اشد خطرا وقوة من كل خصوم الاسلام السابقين ؛ ووجه لغزاة الاوربيين ضربة لم يفيقوا منها ابدا ، لقد اعاد العرب الى العروبة ، وجعل منهم قوة يحسب حسابها الشرق والغرب على السواء ، وضرب مثلا للروح الانسانية والشهامة فى الحرب .



الفصل السابع عشر :

المغول والمماليك

ما ان توفى صلاح الدين حتى بدأ التفكك فى الاسرة الايوبية التى أسسها والتى استمدت اسمها من أبيه نجم الدين أيوب ، فقد نشب الشجار بين أبنائه الثلاثة وبين أخيه العادل بشأن تقسيم مملكة السلطان ، ولم يتم الاتفاق على اقتسامها فيما بينهم ، فلم تمض ست سنوات حتى سيطر العادل على مصر والشام وفلسطين دون أبناء أخيه جميعا . وخلال فترة حكمه التى امتدت الى عشرين عاما ، حافظ العادل على أطيب العلاقات مع الصليبيين ، الذين راعوا من جانبهم حدود الاتفاقية التى عقدت بين ريتشارد وصلاح الدين . ولكن بعد وفاته فى عام ١٢١٨ ما لبثت الخصومات ان نشبت فى دائرة الأسرة الأيوبية .

لقد صمم السلطان الجديد الكامل وهو أكبر أبناء العادل على الحيلولة بأى ثمن دون استئثار أبناء عمومته من فرع صلاح الدين بحكم السلطنة ، وفى هذا السبيل لم يتورع عن عقد صفقة خاصة به مع الصليبيين . ففى عام ١٢٢٩ وبعد حملة صليبية أخرى شنها فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وأدت الى انسحاب المسلمين من بيروت وطبرية وعسقلان والرملة

في ذلك الحين — تنازل الكامل عن بيت المقدس للصليبيين مع ممر بحصن بينها وبين عكا ؛ في مقابل معاونة الصليبيين له ضد ابن أخيه الذي قد يحاول الاستيلاء على السلطنة . كانت اتفاقية بشعة وصفقة مريبة لكل ما فعل صلاح الدين من أجل استعادته للإسلام . وإذا كان الصليبيون قد أخفقوا في استغلال هذه الفرصة للتوغل إلى أعماق أبعد في أراضي المسلمين ، بل لقد اضطروا إلى التخلي عن بيت المقدس عام ١٢٤٤ للمرة الثانية والأخيرة — فإن الفضل في هذا لم يكن راجعا إلى الكامل ؛ وإنما كان مرجعه إلى المنافسات القديمة بين أبناء جنـــــوا والبندقية والفرنجة مما أضعف قوات فردريك ؛ ثم إلى نقص التعزيزات من أوربا التي أصبحت الآن وهي أقل تأثرا بفكرة مواصلة حرب دينية ضد الإسلام .

في هذه الأثناء كان عهد السلاجقة الأتراك في العراق قد انتهى في عام ١١٩٤ عندما تحالف عليهم الخليفة العباسي الناصر مع والي خوارزم الشيعي مما أدى إلى مصرع السلطان السلجوقي الحاكم . ولكن الحليف الجديد انقلب على الخليفة وأعلن نفسه سلطانا على العراق وكردستان ؛ وغزا ابنه فارس وبخارى وسمرقند ؛ بل هدد بخلع الخليفة العباسي ذاته .

وفي غمرة اليأس الذي تملك الخليفة الناصر اندفع إلى التحالف مع عدو للإسلام لا يقل خطرا عن الصليبيين بل يفوقهم وحشية . كان هذا هو جنكيزخان ، زعيم جحافل المغول الوثنيين السود السحنة ، الذين راحوا الآن يتدفقون فوق أقاليم القوية على الإمبراطورية العربية السابقة ، مخلفين وراءهم من الموت والدمار

ما لم يشهد له مثيل من قبل . وبحلول عام ١٢١٩ كان جنكيزخان قد استولى على بخارى وسمرقند وبلخ وأحالها الى خرائب وأطلال ، لقد سويت القصور والمكتبات والمدارس والمساجد بالأرض ، بعد استخدامها كاسطبلات لأفراس المغول . وقد ذبح المسلمون بعشرات الألوف ، ومحي من الوجود التراث الاسلامي فيما وراء النهر .

لقد عاش أناس وعلماء سنوات ثلاثا في مراع ، انتظارا لأن يجرفهم النهر الدموي الذي أطلقته جحافل المغول . وقد أعطاهم موت جنكيز في عام ١٢٢٧ مهلة راحة لكنها لم تكن أمدا من العذاب ، ففي أقل من عشر سنوات هبط حفيده هولاكو على فارس ؛ وبحلول عام ١٢٥٤ زحف شطر العراق ووجه الى المستعصم خليفة بغداد انذارا نهائيا لتسليم المدينة وتدمير دفاعاتها لضمان نجاته .

كان ناقوس الموت يدق مدويا للعباسيين . لعدة تردد المستعصم وحاول المفاوضة ؛ فجاءه الرسول بوعد بابقائه على العرش اذا سلم نفسه شخصيا مع كل أفراد حاشيته . فانخدع المستعصم وسارع الى خيام هولاكو مع أسرته وكافة موظفيه وحرسه وكانوا يبلغون المئات . وعندما تكامل جمعهم انقض عليهم المغول وذبحوهم جميعا ذكورا واناثا على السواء . ثم أسلمت بغداد بعد ذلك الى مذبحة رهيبة وعمليات نهب ودمار أشد بشاعة مما حدث في بخارى . ثم دمر الجحافل الوثنية بغداد تماما بعد أن أشعلوا النار في كل شيء بما في ذلك المكتبات والمدارس . لقد ذبح المغول المتعطشون للدماء أكثر من مليون من الناس بما فيهم النساء والأطفال الرضع .

وبلغ من شناعة الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث المتحللة ان اضطر هولاكو الى سحب جيشه مؤقتا من المدينة . وكانت عمليات النهب والسلب على نطاق لم يسبق له مثيل في تواريخ الحروب ، ولقد احرقت قصور الخلفاء ، واحيل قصر المستعصم والمساجد الكبرى الى انقاض . ولم ينج سوى المسيحيين وكنائسهم ، اذ كانت زوجة هولاكو مسيحية ، وكان هولاكو قد عقد صفقة مع ملك ارمينية الصغرى بالابقاء على حياة المسيحيين وأماكن عباداتهم والمساعدة في استرجاع بيت المقدس ، بشرط ان يساعده المسيحيون في القضاء على الاسلام .

ولأول مرة في مدى الستمائة عام التي انقضت بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، كان الاسلام يقف خلفه . لكن اذا كان المغول قد ظنوا انهم يستطيعون بمساعدة المسيحيين تحطيم بقية العالم العربي بمثل السهولة التي دمروا بها بغداد فانهم لم يحسبوا حسابا لروح المقاومة التي اذكاها صلاح الدين في مصر والشام . فعلى الرغم من ان آخر الاسرة الايوبية الحاكمة قد سقط في النهاية دون ان يكون له فضل سوى استرداد بيت المقدس ، فقد قامت مجموعة جديدة جبارة لكي تخلفه .

ففي عام ١٢٥٠ اطاح بالايوبيين جنودهم وعبيدهم ، الذين تابعوا الذي استثارهم بتسلطه بلقب عبوديتهم الاصلي ، وهو مماليك مصر . وعلى مدى المائتين والخمسين عاما التالية ظهر لهؤلاء العبيد السابقين الذين تحولوا الى اسياد ان يحكموا مصر فعلا واسما .

لقد انتقلت الحركة الآن الى اقدام المماليك متمثلا حين انتهى وهو سيف الدين قطز وصيا على ابن السلطان الصغير السن ، وفي الوقت الذي تم فيه هذا التعيين

كان قطز مشتبكا مع الصليبيين في حروب السلطان ، يساعده شاب من التركمان طويل القامة داكن البشرة أزرق العينين يدعى بيبرس البندقداري . كان بيبرس من أبناء كشاك في وادي نهر الفولجا وقد اشتراه عبدا في دمشق الصالح الأيوبي ونشأه للخدمة في حرس السلطان ، وسرعان ما لمع في خدمة الصالح ، ولما أنه بفضل ما امتاز به من قامة مهيبة وصوت أجش ونشاط متوقد أبي منذ البداية أنه ولد ليقود الرجال ، وقد أدت سرعة ارتقائه في الجيش إلى هيمنته وهو في الخامسة والثلاثين تأكيدا للقوة التي قلت بالحملة في فلسطين بعد إعادة الاستيلاء على بيت المقدس ، وكان عازمه بالجد بإخراج الصليبيين من الشام .

لقد زادت مطامع بيبرس السياسية مع النجـــاحات العسكرية ، وعندما وضع المماليك نهاية لحكم الأيوبيين في عام ١٢٥٤ . فقد لاحت له الإمكانيات الناجحة لجندي مرموق مثله ، وعند هذه النقطة كان يمكن أن ينتهي بتنصيبه نائبا للسلطان في الشام لو أن قطز تصرف مع مساعده بأمانة . لكن قطز نفسه كان أكثر طموحا من بيبرس . فبعد عامين من الوصاية خلع السلطان الصبي ونادى بنفسه سلطانا في عام ١٢٥٩ . وما أن استولى على العرش حتى اكتسح مغول هولاكو الشام بعد انتصاراتهم الوحشية في العراق واستولوا على دمشق وحلب وصيدا . ولقد أعدم كل مسلم وقع في الأسر أثناء القتال من هذه الحملات خمسون ألفا في حلب وحدها . ولم ينج إلا المسيحيون نتيجة للصداقة التي عقدها هولاكو مع الأرمن .

مرة أخرى واجه الإسلام امكانية الفناء الشامل ،

عندما خرج قطز وبيبرس من الشام لمقاتلة التتار شق الطريق قدما نحو الصالحية وانتهت بتقلد قطز، وبيبرس من القيام امتداد صلاح الدين . وقد تولى بيبرس قيادة مقدمة الجيش المملوكي الذي اشتبك مع المغول في معركة فاصلة في عين جالوت قرب بيت المقدس في الثالث من شهر سبتمبر عام ١٢٦٠ . لحقت الهزيمة بالمغول بعد ان اتبع بيبرس التكتيك العربي المجرب وهو التظاهر بالفرار ثم الإيقاع بهم في كمين من السرايا المقاتلة . فقد ترك المغول قادتهم صرعى في ساحة القتال وسعوا لانقاذ انفسهم بالفرار وطاردهم وطردهم من الشام . ولم يكن هولاكو حاضرا في عين جالوت ، فقد اضطر أن يعود الى دياره اثر وفاة شقيقه ليرى ليرث الحكم . لكن غيابه عن الميدان لا يقلل من حجم واهمية انتصار بيبرس ، فان جيشه قد انقذ الإسلام ومن ثم العالم المتحضر كله من الحاق مد الهمجية المغولية عليه .

كان بيبرس بطل المعركة ، ولكنه عندما طالب بالمكافأة التي وعده قطز بها حين خرجا من مصر — وهي الولاية على حلب — تراجع السلطان عما وعد به . فأثار هذا الخداع حنق بيبرس ودفعه الى بعض اصحاب معه . وعندما كان الاثنان منشغلين بالصيد اثناء رحلة العودة الى مصر ، قتل بيبرس قطز . ووجه اليه طعنة قاتلة . وكان بيبرس يعلم جيدا ان دوره في هزيمة المغول سوف يضمن له الصفح عن جريمته ، ولهذا فانه عندما دخل القاهرة بعد ايام قلائل استقبله الجمهور استقبالا حماسيا بوصفه سلطان مصر والشام الجديد .

ان رجلا اقل عزما ونشاطا من بيبرس كان ممكن أن يقتنع الآن بما حقق من نصر . فقد اصبح مغول هولاكو محصورين في العراق ، ولم تعد البقية الباقية من الصليبيين في فلسطين تمثل تهديدا خطيرا لمصر والشام .

ولكن رائحة الصيد بدأت تملأ خياشيمه ، ولهذا صمم بيبرس أن يقضي على صلاح الدين ويخرج الفرنجة من فلسطين كلية ويضيف بغداد الى امبراطوريته . وفضلا عن هذا فانه كان على النقيض من صلاح الدين لا يتوقف عند حد ولا يتورع عن حيلة أو خديعة يمكن أن يحقق مآربه . ولقد صمم على الخصوص أن يتفادى الحرب في جبهتين ، ودفعا لهذا عقد تحالف أولا مع المغول لهزيمة الصليبيين ، ثم مع الامبراطور البيزنطي لهزيمة المغول ، وعقد معاهدات تجارية مع ملوك فرنسا وصقلية وأسبانيا لامداده بالأسلحة وعتاد الحرب اللازم لكلا العمليتين .

وبعد أن أتم بيبرس عقد أولى المحالفتين خرج على رأس جيش المماليك لدحر الفرنجة ، ولكن بسبب انتقامه بصفة خاصة على المسيحيين في أرمينية وأنطاكية ، الذين كانت معاهداتهم مع هولاكو أن تؤدي الى القضاء على الاسلام ، وقد استولى في عام ١٢٦٣ على الكرك من الصليبيين ، وبعد مضي على قيسارية وصفد . وفي عام ١٢٦٦ حاصر صفد قرب طبرية ، وبعد أن وعد حاميتها بالعفو في مقابل استسلامها ، جمع الباقين البالغ عددهم الفين فوق ربوة وأعدمهم جميعا . وواصل الزحف حتى الجليل وعلى امتداد الساحل وهو يسبي كل مسيحي وقع في قبضته عربيا كان أو أوروبيا ، ولا آخذ من الاستيلاء على عكا لمجاورتها لغزو قيليقية والاستيلاء عليها . ثم اتجه الى انطاكية وأنذر حاكمها بالتسليم أو الدمار ، ولما لم يستجب بادر باقتحام المدينة وأحرقها حتى سواها بالأرض وذبح حاميتها وباع الزوجات والأطفال في سوق الرقيق . وبعد هذا سقطت يافا ومن بعدها الحصن الصليبي الشهير : كراك دي شفالييه (

الذى تصدى كل هجمات صلاح الدين .

وفي عام ١٢٧١ اوقفت التعزيزات التي عقبها الفرنجة تقدم بيبرس ، بعدئذ هدنة وترك الصليبيون يتعلقون بضع سنوات بمواطىء اقدامهم الأخيرة في صيدا وعكا وطرابلس . ولم يلبث بيبرس الآن ان طالب بتنفيذ ميثاق عدم الاعتداء الذى عقده مع البيزنطيين لكى يواجه المغول ويعمل على تمزيقهم . وكان هدفه ان يستولى على بغداد ويصحب خليفه عباسيا يقلد بيبرس سلطانا وواليا على مصر والشام والحجاز واليمن ووادى الفرات ، كما يقدم ذريعة لاعادة مدينة بغداد رسميا الى خليفة من العباسيين .

وفعلا لم يجد بيبرس صعوبة في العثور على واحد من أقرباء الخليفة العباسي الذي قتله المغول لكي يجلس على عرش الخلافة الخالي . ومن عجب ان هذه الدمية التي استخدمها بيبرس استمر صاحبها بحكم تحت اوامر المماليك الى ان طردهم الاتراك العثمانيون من مصر في عام ١٥١٧ وصحبوا معهم آخر خليفة عباسيا الى القسطنطينية . وهكذا استخدم بيبرس هيئة الدمية العباسية ذريعة لغزو العـــراق في عام ١٢٧١ . وعلى الرغم من انه اخفق في الاستيلاء على بغداد ، الا انه نجح في مد حـــــدوده شرقا . كان هولاكو قد توفى عام ١٢٦٥ ، تاركا قبضة المغول على العراق اضعف مما كانت من قبل ، وقد اســــتطاع الجيش المملوكي ان يحمي سوريات ان يدمر وينهب وادي الفرات وهو ينتصه من العقاب وان يطهر المنطقة تماما من حامياتها المغولية . وحـــــاول اباغا خلف هولاكو ان يدفع المماليك في استماتة ، بل اندفع الى ابعد سعي الى البابا لروحه : بمؤازرة من ارمينية ، ارسال حملة صليبية اخرى .

ولكن الغرب كان الآن أضعف روحيا وماديا من القيام بمجهود جديد ، ولم تتم الاستجابة لهذه الإغراءات المغولية .

توفي بيبرس في يوليو عام ١٢٧٧ قبل أن يتمكن من اتمام مهمته الأساسية . فإن طرد البقية الباقية من الصليبيين نهائيا من فلسطين حدث بعد ذلك بأربعة عشر عاما على يد مملوك آخر من كبار الأمراء هو سيف الدين قلاوون ، أكبر خلفاء بيبرس . وبالمثل فإن الموجة المغولية لم تتبدد نهائيا الا في عام ١٣٠٢ عندما حاول حفيد هولاكو وهو غازان خان غزو الشام مرة أخرى ، فهزمه المماليك قرب دمشق واقتيد الأسرى من جيشه الى القاهرة مصفدين بالسلاسل وهم يحملون حول رقابهم رؤوس رفاقهم الذين سقطوا صرعى المعركة . ولكن ، مثلما أن صلاح الدين هو الذي وضع أسس النصر النهائي ضد الصليبيين ، فكذلك كان بيبرس هو الذي حطم زحف المغول وهم في ذروة قوتهم . وبهذا العمل من جانبه أعطى العالم الاسلامي قرنا من السلام والأمن ، الى أن جاء تيمورلنك وكرر قصة الموت والدمار التي بدأها جنكيزخان . وأكثر من هذا فإن بيبرس بوقفه للزحف المغولي فيما وراء حدود مصر ، قد أنقذ مصر من الخراب الذي حل بالشام والعراق : وهكذا ضمن لها تفوقا ثقافيا وسياسيا في العالم العربي قدر له أن يظل بلا منازع مدى ستة قرون .

وكان بيبرس أكثر من شخصية عسكرية ، وكانت طاقاته الكبيرة مكرسة لتحسين الادارة في مصر ، والقضاء بقدر ما كانت مكرسة لقتل خصومه من الخارج . فقد خفض الضرائب ، وبنى الأعمال العامة ، وحفر القنوات ، وطور الموانى ، وأعطى مصر والشام



نطاقات كبريد لا يكاد ينقطه نظيام في عصرنا الحسالي القائم على الاتصال بالطائرات النفاثة ، حتى كان الخطاب في البلدين لا يستغرق اكثر من اربعة ايام .

ولعل مما يسترعي النظر ان نجاح المماليك بعد وفاة بيبرس يرجع الى ان سلاطينهم كانوا يعيشون ويلعبون على عتبات أمصر في تلك الفترات التي كانت تمضي عهود الخلفاء العباسيين انداد الجيل الطمسوري لتسلط اجنادهم الاتراك عليهم : ان العرش ونصف القرن من السلطنة المملوكية تنقسم الى أسرتين منفصلتين ونشهدت حوالي لا يقل عن سبعة واربعين سلطانا ، فقد حكم المماليك البحرية من عام ١٢٥٠ الى عام ١٣٩٠ ، وجاء بعدهم المماليك البرجية فواصلوا الحكم الى ان اجتاحهم الاتراك العثمانيون في عام ١٥١٧ . ولكن المماليك ، على خلاف العباسيين ، رفضوا نظام الوراثة ، فلم يكن السلطان المملوكي اكثر من الأول بين أقرانه ، وكانت السلطة الحقيقية مركزة في ايدي أقلية حاكمة من العسكريين . وهكذا ظل العصر من الرقيق التي حكمت مصر والشام شبه واثقة من اقدامهما بفعل تنافس بعض في دائرة النظام السياسي ، مهما حال بينها وبين الوقوع فريسة للإثارات الفساد والانحلال المتولدة من حياة الترف والخصومات الحاكمة التي شملت بمرحل الاسرات الحاكمة الوراثية التي سبقتها .

القسم الخامس :

التفــــوق الـــــــتركى

الفصل الثامن عشر :

رقاد العصـــور

منذ أهل القرن الرابع عشر كان الاسلام مرة اخرى سيد مصيره . فقد طرد الصليبيون طردة من كانوا ضحايا للهوى والغدر والجشع ، وهم الذين قال عنهم ستيفن رنسيمان : « كان عندهم الكثير من الشجاعة والقليل من الشرف ؛ والكثير من التفاني والقليل من الفهم ، حتى علها لطختها القسوة والنذالة ، ولم تكن الحرب المقدسة ذاتها اكثر من تسلسل طويل من التعصب باسم الرب » أما المغول فقد ظلوا مسيطرين على فارس والعراق ؛ ولكن ابتداء من غازان خان تصاعدا فقد اعتنقوا الاسلام ، وفي الشام كان الجيش المملوكي الذي صد غزو غازان خان في عام ١٣٠٢ تتبع الدروز والرافضة المسيحيين والاسماعيلية ؛ وبدا عندئذ أن العالم العربي قد تخلص من تلك الطوائف المنشقة التي كانت تتحدى عقيدة أهل السنة .

والواقع أن الامبراطورية وإن كانت مقسمة سياسيا بين المماليك في الغرب والمغول في الشرق ، فإن الاسلام الذي كان متحدا على نحو لم يبلغه منذ أيامه الأولى ، قد وقف الآن متأهبا للقيام بزحف كبير آخر كان مقدرا أن يسحق الامبراطورية البيزنطية إلى الأبد ويدفع بجيش من المسلمين حتى أبواب فيينا . ولكن هذا

الانتصار الكبير عندما جاء ، كان تركيا وليس عربيا .
ومن تصاريف القدر أن العرب الذي ترعرعت بينهم
العقيدة التي قدر للأتراك العثمانيين ان يفتحوا بها كل
صوب شرق أوروبا ، كان عليهم ان يتعلمهم ويستعبدهم
هؤلاء الفاتحون .

لقد ظهر الاتراك العثمانيون لأول مرة قرب نهاية
القرن الثالث عشر تحت قيادة امير شاب ذي صلابة
وطموح يدعى عثمان ، اصبح مؤسس اسرة آل عثمان
الذي لقبت هذه الأسرة الحاكمة باسمه . ولم يقنع عثمان
بالأرض الضئيلة التي كانت له ولأسرته في وسط
الأناضول ، فعمل على توسيع هذه الرقعة في جميع
الاتجاهات ؛ وكان موصوفا بالقسوة المفرطة حتى قيل
انه قتل عما له لمعارضته خطته في مهاجمة قبيلة مجاورة .
وعندما توفي عثمان في عام ١٣٢٦ كانت املاكه تمتد الى
البحر الأسود والبوسفور ، حيث اقام عاصمته في
بروسة .

وقد اختير ابنا عثمان لإدارة املاك ابيهما ، فكان
الأكبر سلطانا والأصغر وزيرا . ومنذ ذلك العهد وخلال
الـ ٥٦٦ عاما التالية حتى سقوط الامبراطورية العثمانية
في عام ١٩٢٢ ، تولى الحكم ستة وثلاثون سلطانا ، كلهم
من سلالة عثمان مباشرة . ولم يكن ابنا عثمان يقلان عن
ابيهما طموحا ومقدرة في التنظيم العسكري ، فهما اللذان
انشآ فرقة (الانكشارية) المشهورة ، فكانوا في غالبيتهم
من المجندين الروم الشبان الذين اصبحوا من رعايا
السلطان بحكم فتوحات عثمان في الأراضي البيزنطية ،
وقد شكلت منهم فرقة كانت بمثابة الجيوش العثمانية .

وفي النصف الأخير من القرن الرابع عشر كان ما بقي

من الامبراطورية البيزنطية تمزقه الحروب الأهلية ، وقد انتهز الأتراك العثمانيون الفرصة فعبروا البوسفور واقاموا رأس جسر في أوروبا ، ثم توغلوا حتى البحر الادرياتي وحدود هنغاريا ، عندما اضطر السلطان بايزيد الى استدعائهم لمواجهة آخر وافظع غزوات المغول . ففي عام ١٣٨٠ قام أحد شيوخ بلاد ما وراء النهر المسمى تيمورلنك ويدعي الانتساب الى جنكيزخان باحتلال افغانستان ثم انقض على فارس وكردستان . ولم يلبث هذا الخطر المغولي الجديد أن احدث تشريدا جنوبا وغربا ببطء ولكن بقوة وصلابة . وفي عام ١٣٩٣ استولى تيمور لنك على بغداد واحتل ارض الجزيرة ، وهو يحمل شللا في رسغه على نطاق قليل ، كان يعمله جنكيز خان وهولاكو ، حتى كان يبني اهراما من جماجم ضحاياه . وعندما تحول بعد خمس سنوات الى الشرق واستولى على دلهي في الهند ، ذبح ثمانية الاف من سكانها . وبعد تحول تيمور الى روسيا احتل اتباعه موسكو أكثر من عام وجه اهتمامه الى الشرق الأوسط مرة أخرى . ففي عام ١٤٠٠ اكتسح جيوش المماليك في الشام وخرب حلب . وكانت اهرام الجماجم التي اقامها تضم عشرين الفا من رؤوس ضحاياه . وقد دمر كافة المساجد والمدارس التي بناها صلاح الدين .

وفي نفس العام سقطت حمص وحماة وبعلبك في ايدي المغول ، وفي فبراير ١٤٠١ دحر المماليك الدافعين عن دمشق رغم الاستيلاء على العاصمة الشامية . وقام تيمورلنك الذي ادى به التحول الى الاسلام الى اعتناق الهرطقة الشيعية بنهب وتدمير المدينة واحراق كل شيء فيها ولم يقنع تيمورلنك بهذا ؛ بل حمل معه الى عاصمته

في سمرقند خيرة الصناع وأرباب الحرف في المدينة. وفي طريق عودته توقف في بغداد حيث قتل بعض ضباطه بأيدي أهلها العاصين، فأمر بإعدام الرجال بالجملة انتقاما، وأقام في أرجاء المدينة أهرام الجماجم المشهورة. وكما فعل في دمشق، فقد نقل معه إلى ممتلكاته في الشرق مهرة الصناع والحرفيين.

حتى ذلك الحين كان الأتراك العثمانيون يقفون موقف المتفرج على هذه المجازر وقد تملكهم الرعب، ولكن تيمورلنك الذي لا يستقر ولا يرحم ما لبث في عام ١٤٠٢ أن زحف على الأناضول. ولم يستطع حتى الانكشارية وقف الهجمات، وسحق الجيش العثماني أمام أنقرة وأخذ السلطان أسيرا، وبدا الآن أن الامبراطورية العثمانية قد خربت في مهدها. ولكن وفاة تيمورلنك بعد عامين كانت بمثابة معجزة أوقفت الزحف المغولي عند حده، كما حدث عند وفاة جنكيزخان قبل ذلك بمئة وستين عاما. وقد استطاع الأتراك والفرس والعرب أن يستردوا أراضيهم، وأصبح الأتراك الآن أحرارا لكي يعاودوا من جديد خطتهم في الهجوم الشامل الذي قدر أن يؤدي إلى سقوط القسطنطينية وأن يدفع بالجيوش العثمانية إلى داخل البلدان الأوربية حتى ضفاف نهر الدانوب. وبحلول عام ١٥٠٣ كان الأتراك يحكمون من الدانوب حتى جبال طوروس.

ولم تلبث هذه النجاحات أن دفعت الأتراك العثمانيين لكي يوجهوا اهتمامهم إلى الشرق وإلى الجنوب. وفي عهد السلطان سليم الرهيب تمكنت جيوشه من غزو فارس واحتلال عاصمتها تبريز. وفي العام التالي اندفعت جنوبا واستولت على أرض الجزيرة.

في هذه الاثناء كان السلطان المملوكي قنصوه الغوري في طريقه الى حلب وبرفقته آخر الخلفاء العباسيين ، وقد اعلن قنصوه عن رغبته في التوسط بين العثمانيين والفرس ، ولكن السلطان العثماني الذي رأى الفرصة سانحة للاستيلاء على الشام ومن بعدها مصر ، اعلن الحرب وهو مطمئن الى ان الشاميين لن يستطيعوا الصمود بحرابهم وسيوفهم امام البنادق والمدفعية الحديثة للاتراك . وبعد ان تخلى الشاميون جماعات عن قادتهم ، وسقط قنصوه صريعا عن ظهر جواده مصابا بالشلل ، ودخل سليم حلب منتصرا . ولم يمض شهران حتى احتل الفاتحون العثمانيون الشام كلها .

وما لبث سليم ان زحف عبر فلسطين ليجعل من نفسه سيدا على وادي النيل . وكان تسليح المصريين قاصرا كذلك ازاء بارود ومدافع العثمانيين ، وكانت الحالة اسوأ بسبب « الموت الاسود » الذي انتقل من اوروبا وفتك بعشرات الألوف من المصريين ، فضلا عما تفشى في البلاد من فساد الحكم المملوكي الى حد ان السلاطين انفسهم كانوا يملأون جيوبهم باحتكار الحبوب والسكر لحسابهم الخاص مع تحريم زراعتهما على المواطنين . وكانت النتيجة المحتومة حدوث مجاعة في البلاد ، مما ادى ، الى جانب الطاعون ، الى هلاك ثلث سكان المملكة المملوكية في مصر والشام . وهكذا فعندما تدفقت القوات التركية المملوءة البطون بالطعام والقوية التسليح الى داخل مصر لم تجد صعوبة تذكر في التغلب على المدافعين المماليك والاستيلاء على القاهرة في يناير ١٥١٧ . لقد سحقت الآن الاسرة المملوكية الحاكمة ، وسقطت المدن الحجازية التابعة لها وهي مكة والمدينة في الفلك العثماني بطريقة آلية . وحمل الخليفة الالعوبة كأسير حرب الى

القسطنطينية التي اصبحت الآن العاصمة العثمانية الجديدة ، وكان ذلك ختام آخر الخلافة لخلافة عربية .

وما لبث الاتراك العثمانيون أن انتشروا الآن بسرعة على امتداد ساحل افريقية الشمالي . وبعد سنة من سقوط القاهرة احتل قرصان تركي يدعى خير الدين — الجزائر ، ومنح (الباب العالي) ، وهو الاسم الذي تسمت به الحكومة العثمانية ، خير الدين لقب (باي) ، وبعد أن خلف سليمان العظيم السلطان سليم زود حملة السلاح من بناة الامبراطورية بجيش من الانكشارية زحف به للاستيلاء على تونس في عام ١٥٣٤ . وفي عام ١٥٥١ استولت جيوش السلطان بقيادة قائد الذي على طرابلس من فرسان القديس يوحنا في مالطة ، وعلى مدار العشرين عاما التالية احتل ساحل الحسا ، وكانت تشمل الكويت والبحرين ، وكذلك سقوط اليمن وعدن ومسقط — اكمل خاتمة الفتوح العثمانية . وقد ساغ لسليمان أن يوجه خطابا الى ملك فرنسا بدأه بقوله : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك .. ظل الله على الارض ، سيد البحر الابيض والبحر الاسود ، وبلاد الروم واذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة وبيت المقدس وبلاد العرب واليمن واراضي أخرى كثيرة ... اخضعتها جلالتي المعظمة بسيفي الملتهب وسلاحي المنتصر ، انا السلطان سليمان خان ... اليك انت يا فرنسوا ، ملك أرض فرنسا » .

ومن الامبراطورية العربية القديمة ، كانت المناطق الوحيدة المستقلة هي مراكش وفارس وقلب شبه الجزيرة العربية الصحراوي . وبهذه الاستثناءات ،

بالاضافة الى اليمن التي أصبحت ملجأ للمتعاطفين مع الشيعة من العراق والبحرين والتي احتفظت لنفسها بشبه استقلال من ١٦٣٢ الى ١٨٧٠ – كانت جميع المناطق الناطقة بالعربية في الامبراطورية قد أخضعت الان للاتراك العثمانيين وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر . وما عجز العثمانيون عن انتزاعه كان يخضع لاحتلال اجنبي آخر . كانت بغداد يستولي عليها الفرس على فترات مختلفة في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وظلت الولايات الشرقية فيما وراء النهر تحت أقدام المغول حتى الغزو الروسي ، واخذت اوروبا للاستيلاء على الهند واقامة امبراطورية المغول في دلهي ، وكانت اسبانيا قد استولت عليها حتى ارغون وقشتالة المسيحيون ، وتحولت القاهرة القسطنطينية ، التي سبب الاسالة (عن كونها مركز الثقل في الاسلام) واصبحت مجرد بلدة اقليمية . وباكتشاف فاسكو دى جاما لطريق رأس الرجاء الصالح الى الهند في عام ١٤٩٨ ، فقدت مصر والشام والعراق مركزها الاقتصادي واهميتها كطرق تجارية الى الشرق ، واكتملا لقصة الاذلال العربي صار الدعاء يجري للسلطان الخليفة التركي في جميع أنحاء الامبراطورية ، ان الفساد الذي حل منذ سبعة قرون مع استقدام الجنود الاتراك بعد الخليفة المنعم العباسي قد شق طريقه نحو النهاية في قلب وروح الشعوب العربية ، وطلى مدار معظم الثلاثمئة عام التالية وقع العالم العربي فيما سمي بعد ذلك بركود العصور .

***

كان الاتراك العثمانيون نوعا غريبا من الامبرياليين ، كانوا على استعداد لان يفعلوا اي شيء للتشبث

بامبراطوريتهم ما عدا أن يعيشوا فيها ، وايثارا منهم
للبقاء كأقلية مسيطرة في رحلتهم بآسيا الصغرى ، كانوا
يحكمون ممتلكاتهم عن طريق نواب السلطان من الأتراك
يدعون باشوات ، يمكن الموظفون والجنود المجلوبون
تحت امرتهم من التطلع إلى أعلى مراكز السلطة والمسئولية؛
بما في ذلك منصب الوزير الأعظم ؛ وفي عاصمة كل
اقليم كانت تلحق وحدة من الانكشارية لتوفير قوات الأمن
والدفاع في الاقليم . أما الجانب الآخر فكان يجند من أبناء
الاقليم من البربر ، والأكراد ، واليونانيين ، والشراكسة ،
والعرب ، والصقالبة ، والألبانيين ، والايطاليين ، والأرمن
ـ الذين كانوا يخضعون لدورات تدريب وتوجيه عنيفة
في المدارس العسكرية التركية المحلية ، ويعتنقون الإسلام
اذا دعت الضرورة .

ولم تلبث السلطات العثمانية أن سارت في الحكم
مسيرة تلك الأسر الحاكمة التي حكمت العالم العربي في
عصوره السابقة وحل بها التدهور ، وهكذا أصبح رعاياها
ضحية الاهمال بتأثير سوء الادارة . وقد جاء التدهور بعد
نحو مئة عام من فتح الشام ومصر ، وكان من أسباب
التدهور فقدان الحافز الذي أعقب وقف توسع
الامبراطورية عند نهاية القرن السادس عشر ؛ عندما
وجد العثمانيون أنفسهم مواجهين من كل جانب بحواجز
منيعة ففي الشمال وقفت روسيا التي منحها ولايات
الجيش اللاهي يسد الطريق أمام مزيد من التقدم فيما
وراء شبه جزيرة القرم والقوقاز ، وفي الشرق طرد
البرتغاليون البحرية العثمانية من المحيط الهندي ، وفي
الجنوب كانت الصحراء الافريقية تتحدى الغزو ، وفي
الغرب كانت جيوش آل هابسبرج قد هزمت كل محاولة
للاستيلاء على فينا . وبنهاية القرن السابع عشر كان

العثمانيون يتراجعون في أوروبا . فان الدول الغربية قد شجعت بعد فشل هجومهم الثاني الكبير على فيينا في عام ١٦٨٢ . وبدأت بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا تتحرك في هجوم منسق ضد جيوش السلطان ، وبحلول عام ١٧٥٠ تم لها تطهير هنغاريا وترنسلفانيا وأجزاء من ولايات روسيا على البحر الأسود من الاحتلال العثماني . وعند هذا الحد بدأ القياد كذلك في ممتلكاتهم العربية . وأتى من بواعث الدهشة أن التحدي الكبير الأول جاء من مصر . فهنا - مثلما - كان الحال في كل مكان آخر في امبراطوريتهم ، ترك الباب العالي الحكومة المحلية تعمل تحت اشراف الباب العثماني . وهكذا استمر المماليك في مصر والشام باعتبارهم تابعين للآستانة ؛ ولكن الباشوات الذين كان الباب العالي يرسلهم ليكونوا على رأس هذه الادارات الحكومية المملوكية كانوا من جهلهم المزاجه باللغة والعادات المحلية ، وبالتالي عن معرفتهم وتصورهم . وفي خلال الـ ٢٨٠ عاما من الحكم العثماني المباشر تعاقب على مصر مئة من الولاة العثمانيين المختلفين . بل ان الشام شهدت تقلبات أكثر ، اذ كان الباشوات يتغيرون بمعدل واحد كل سبعة عشر شهراً .

وفضلا عن ذلك فان محنة الشعب وخاصة في مصر زادت تدهوراً في ظل الحكم العثماني . ففي خلال القرن السابع عشر ادى تفشي الطاعون والمجاعة مرتين الى القضاء على أكثر من ربع مليون من الناس ، وقضى بعد ذلك بعشرة عام على أكثر من مليون من السكان . وكان حتما أن يحتوي هذا المزيج من اهمال الحكام ومعاناة المحكومين على المادة التي تتكون منها الثورات ، وقد جاء الانفجار في عام ١٧٦٦ عندما قام علي بك قائد الجيش المملوكي بطرد الباشا العثماني واعلان استقلال مصر .

كان علي بك من المماليك الشراكسة ، وابا لقبي مسجي . وفي طفولته اختطفه عصابه من قطاع الطرق وبيع في سوق الرقيق في مصر ، حيث ارتقى الى اعلا المراتب في جيش السلطان . وفي ذلك العهد كانت الامبراطورية العثمانية في حرب مع روسيا لامتلاك شبه جزيرة القرم وغيرها من المستعمرات التركية على امتداد ساحل البحر الأسود . ولكي يتمكن (الباب العالي) من مواصلة الحرب امر علي بك بتكوين جيش والاسراع الى مسرح العمليات . وهنا رأى المملوك الداهيه فرصته ، وبعد أن تمكن من جمع الجيش ، انقلب على سادته العثمانيين ، وتغلب على الحامية الانكشارية ، وامر الباشا الوالي بالعودة الى الاستانة . وتقدم صهره محمد ابو الذهب للاستيلاء على مكة باسم علي بك ، الذي نادى بنفسه سلطانا مستقلا لمصر وخاقانا للبحرين (البحر الابيض والبحر الاحمر) . وفي عام ١٧٧١ زحف ابو الذهب على سوريا واستولى على دمشق بجيش من ثلاثين الف رجل . ولكن انتصار علي بك كان قصير الأمد ، فان صهره الغادر ما لبث أن انضم الى الاتراك مع الجزء الاكبر من الجيش المملوكي . وهكذا لم يعد لعلي بك سوى الفرار الى فلسطين حيث انضم حراله الى زعيم بدوي آخر من البدو كان قد استطاع أن يقتطع لنفسه مشيخة مستقلة تشمل عكا وطبرية . ولكن هذا التحالف لم يدم طويلا ، فقد تألبت على الاثنين قوى مشتركة من العثمانيين والمماليك والامراء اللبنانيين ، وانتهى الامر بقتل علي بك في عام ١٧٧٣ ، والزعيم البدوي بعد ذلك بعامين .

ويبدو أن الاتراك قد انهكهم هذا الصراع الذي اشتركت فيه روسيا أولا ثم الفرنسيون بعد ذلك عندما

ظهور نابليون على المسرح في عام ١٧٩٨ . انهم اخلصــوا
كبرياءهم وانحازوا الى شراء هدنة للعة . منذ اعترفوا
بالثائر احمد الجزار الذي خلف الزعيم البدوي الداهية
واليا على الشــــام ولبنان ، وهنئوا الثائر الســابق
(ابو الذهب) ضمنيا للبلد مع منحه سلطة الوالي . وعلى
الرغم من ذلك كان الحكم التركي قد اهتز بصورة خطيرة ،
وما ان انتهى القرن الثامن عشر حتى كان المسرح مهيأ
لشخصية كبرى جامحة تتحدى هيبة الســلطان .

الفصل الثالث عشر :

يقظة جديدة في مصر

في يوليـــــو عام ١٧٩٨ هبط نابليـــون بونابرت في الاسكندرية ، وجعلها في وجه الشرق الأوسط كله . والواقع ان كل نهوض حدث في العـــــالم العربي في هذين القرنين الأخيرين يمـــــكن تتبع أثره الى هذا الحـــدث الطوفاني . فإن قيام محمد علي ، وتدفق تعليم الغرب وثقافته ومثله ، وهي التي بذرت بذورها بذور الفـــكر والعمل القومي العربي الحديث ، وكذلك اهتمام بريطانيا وفرنسا بالشرق الأوســـــط والمنافسة بينهما — كل هذه الأحداث تعزى مباشرة الى هذا الحدث الأوروبي الكبير . وأهم من هذا كله فإن حمـــــلة نابليون أخرجت مصر من دائرة النسيان كمجرد ولاية وأعادتها الى مكان الصدارة في السياسة الدولية . وعلى الرغم من أنه كان لابد من انقضاء مئة وخمســـين عاما أخرى قبلما استعادت مصر على النهاية الاستقلال ، الا أنها عادت منذ الآن لتصاعدا الى سالف أهميتها كمفصل العالم العـــــربي والمعبر الرئيسي من الغرب والشرق .

ولكن وصول الجيوش الفرنسية الى الاسكندرية الذي [illegible] من العام التالي ، وكان نابليون يتوقع ذلك ، وفي محاولة [illegible] في أعين الأتراك لقد أعلن

لدى هبوطه انه جاء لمعاقبة المماليك الذين لم يكونوا مثال المسلمين الصالحين واستعادة سلطة السلطان التي أودت بها ثورة علي بك . بيد ان الانجليز كانوا يعلمون جيدا ان غرض نابليون الحقيقي هو اقامة قاعدة فرنسية تمكنه من قطع اتصالات بريطانيا بالهند والشرق . وكانوا يعلمون أيضا انه لو نجح فان مصر وربما أقاليم عثمانية أخرى سوف تحتلها القوات الفرنسية على الدوام . وإذا كانت السلطات العثمانية قد تسامحت خلال عشرات الاعوام الماضية وفتحت ممتلكاتها للتجار والمعلمين والمبشرين الفرنسيين ما داموا لا يسيئون الى الاسلام والمسلمين ، فما ينبغي لها أن تعامل القوات الفرنسية بهذا التسامح بأي حال .

وتبعا لذلك فبعد أن بانت نوايا نابليون الحقيقية بتوجيه ضربة ساحقة لجيش السلطان في موقعة الاهرام ثم مطاردة الناجين عبر النيل حتى النوبة ، شرع الباب العالي في حشد الجيوش من كافة أرجاء الامبراطورية لطرد الغزاة الفرنسيين ، وفي هذا السبيل رحب السلطان بوصول الأسطول البريطاني ، وأغدق الهدايا على قائده الأميرال نلسون ، الذي رد على كرم السلطان بهزيمة الاسطول الفرنسي في خليج أبي قير ، وبعد ذلك بثلاث سنوات ، في عام ١٨٠١ ، أعقبت وحدات من الجيش البريطاني انتصار نلسون بدحر الجيش الفرنسي في موقعة الاسكندرية . وهكذا أحبطت مطامع نابليون في الشرق ، وبانسحاب قواته من مصر ، تهيأ للسلطان العثماني أن يتنفس الصعداء من جديد .

ولكن ما ان تمت إزاحة الغزاة الفرنسيين حتى بدا تهديد جديد للسيادة العثمانية في مصر يتشكل . فقد

كان بين قوات الاحتياطي الكبيرة التي جرى تجنيدها من المقاطعات العثمانية ضد نابليون في جنوب شرق أوروبا ضابط شاب في قوات السلطان الألبانية يدعى محمد علي ، الذي ولد في قولة قرب سالونيك في عام ١٧٦٦ من أب كان بائع دخان ؛ وبدأ حياته محصلا للضرائب في خدمة الوالي المحلي ؛ واستطاع بأساليبه الملتوية أن ينال اهتمام الوالي الذي زوجه ابنته وعينه في الميليشيا المحلية . وهكذا وجد محمد علي نفسه في الطريق الى مصر يشغل المركز الثاني في كتيبة من الجنود غير النظاميين العثمانيين الذين جندهم السلطان من كل مكان لمحاربة الفرنسيين .

وعلى الرغم من أنه لم يلعب دورا فعالا في العمليات الحربية ضد الفرنسيين ، الا أنه شق طريقه الى القمة بسرعة بالغة ، ففي مدى عامين من وصوله في عام ١٧٩٩ رقي الى رتبة كولونيل في أركان حرب الباشا التركي ، والى المركز الثاني في قيادة القوات الألبانية التي شكلت الجانب الأكبر من الحامية التركية في مصر .

وسرعان ما فتحت هذه الثغرة النافذة الى الحكومة والحامية في مصر عين محمد علي الى امكانيات ازاحة النير العثماني ، بانحلال الألبان كرأس حربة في الثورة وبالاستناد الى مؤازرة المماليك ، وقد بلغ به الطموح حدا جعله يتخيل نفسه بانيا لامبراطورية جديدة . وهكذا لم يلبث أن انغمس في التآمر ضد باشا الايالة ، ولعب دورا رئيسيا في المؤامرة التي أدت في عام ١٨٠٣ الى تمرد الحامية الألبانية بحجة عدم دفع الرواتب المتأخرة شهورا عدة .

وعند بدء التمرد الذي قاده طاهر باشا وهو قاطع طريق

سابق تولى قيادة القوات الألبانية نجاحاً تاماً . فقد استولى الألبان بانضمام المماليك اليهم على القلعة مقر الحكومة ، ودفعوا الباشا الى الفرار . وبي حسن حظ محمد على ان طاهر بك قتل على الاثر ، فكانت له قيادة الألبان ؛ وهم سادة القاهرة . ومنذ الآن اخذ يلعب دوره بدهاء تام وخداع لا هوادة فيه ، فراح يؤلب الماليك على الاتراك وهؤلاء على اولئك ؛ منتهزاً كل فرصة لتوطيد مركزه شخصيا . وبعد ان قتل المرتدون الالبان اول بديل ارسله الباب العالي مكان الباشا المطرود ؛ قرر محمد على الآن ان من السياسة مجاراة الاتراك مؤقتا ، فانقلب على الماليك واعلن تأييده للوالي الجديد خورشيد الذي وصل فى مارس ١٨٠٤ ، ولكنه راح يعمل دائباً تحت قناع التعاون الظاهري لاستمالة الشعب ورجال الدين فى القاهرة ، باستغلال كافة المظالم تحت الحكم العثماني .

ومع تصاعد الأزمة فى العاصمة ، بدا خورشيد يرتاب فيما يتظاهر به محمد على من الولاء ، ولكي يتخلص منه دون أي شيء سدادا سافرا ، عينه باشا جدة في الحجاز . ترد محمد على على هذه البادرة بأن امر بمساطة الألبان بالقبض على خورشيد ، بينما خرج أهل القاهرة من جانبهم الى الشوارع يهتفون مطالبين بتعيينه والياً . ولكنه بما انطبع عليه من الدهاء قاوم هذه المطالب وانتظر ان يقوم الباب العالي بالخطوة التالية . وقد بدات الاحداث الآن تتلاحق فى صالح محمد على فان تردد الباب العالي وخوفه من تحدي الألبان الذين كانوا الآن فى موقف السيطرة جعلا السلطان على ايفاد مبعوث خاص للتحقيق والاستقصاء والتوصية بحل المشكلة . وقد ابدى المبعوث فى النهاية ان محمد على هو بلا شك

أقوى سلطة في البلاد وهو يستند الى الحـــــامية الألبانية وأهل مصر الذين يقفون خلفه بصلابة . وفي يوليو ١٨٠٥ رضخ الباب العـــالي المهزوم وأنعم عليه رسميا باشوية مصر .

لقد حقق محمد علي أول حلم من أحلامه . وما لبث شهيته الى السلطة أن تزايدت ؛ وسرعان ما بدأت تساوره أحلام أكبر ، وكان في الحق قاب قوسين من النجاح في مشروعاته لو لم يتدخل لورد بالمرستون وزير بريطانيا ويكبح جماحه : لا حبا في الامبراطورية العثمانية ، ولكن خوفا على الطريق البري الى الهند ، فبعد الذي تحملته بريطانيا لكي تحمي سلطة السلطان عندما كاد نابليون أن يقضي عليها ، ما كانت لتسمح الآن لحدث النعمة هذا بأن يقف موقف التحدي للسلطان ولها معا . فكان لابد لها من وقف أطماعه التوسعية .

وجاءت الخطوة البريطانية الأولى ضـــد باشا مصر الجديد في مارس ١٨٠٧ ، بعد أقل من سنتين من تعيينه في منصبه ، بعد جذب قوة بريطانية في مصر بقصد الانضمام الى المماليك وطرد محمد علي . ولكن الخطة كان نصيبها الفشل ، فإن الخطة لم تضع في حسابها أن المـــماليك رغم رغبتهم في التخلص من الباشا الذي انقلب عليهم ، كانوا الآن بعد هزيمتهم على أيدي الفرنسيين في موقعة الأهرام شراذم ضعيفة مبعثرة فيما بين القاهرة والنوبة ، ولم يعودوا قوة مقاتلة قادرة . ولهذا لم يجد الأهالي الغاضبون أيضا صعوبة في عزل وهزيمة القوة البريطانية الصغيرة منذ نزولها الى شواطىء الاسكندرية .

قرر محمد علي الآن أن يتخلص نهائيا من المماليك . فعلى الرغم من تفرقهم وضعفهم كان مجرد وجودهم يشكل

عرضة للتدخل الأجنبي وللغزو الخارجي ، وقد أصبحوا الآن خطـــراً محتملاً . ومن ناحية أخرى فإن المماليك بدورهم قرروا أن يقوموا بالضربة الأولى ، فتآمروا على اغتيال الباشا في الاحتفال السنوي بوفاء النيل . ولكن المؤامرة انكشفت ، واستدرج القتلة المحتملون أنفسهم الى كمين كانت فيه نهايتهم .

لقد حزم الباشا أمره ، وبمكره وبرود ملك من ملوك الحربية رسم خطة لإبادة ضباط المماليك . فأوهمهم أولاً أنهم سيكونون طليعة جيش يتولى إرساله الى الحجاز لصد غزو من جانب زمرة متعصبة من نجد ، ودعاهم الى استعراض ختامي في القلعة توطئة لتسفيرهم . ولعله مما لا يصدق أن هذا الجو المشحون بالإشاعات والمؤامرات الضارة لم يجعل المماليك يستشعرون بخطر هذا الفخ الجهنمي . ولعلهم فطنـــوا الى ما يدبر لهم وترددوا لقارعه . وعلى أي حال فقد توجهوا الى القلعة ، وما أن اجتاز بكوات وضباط المماليك مدخلها حتى أغلقت الأبواب من خلفهم وأطلقت عليهم النيران .

استقبل محمد علي قادة المماليك بترحاب وقدم لهم (الشربات) . ولدى إشارة معينة انقض حرسه الألبان على ضيوفه وذبحوهم ذبحاً ، بينما انطلق وابل منهمر من الرصاص من أبراج القلعة وحصد (٤٧٠) من الضباط المحصورين في الخارج ، ولم ينج منهم سوى واحد فر بجواده من فوق سور خلفي فقتل الجواد ونجا الراكب الذي أفلت من إصـــابته واختبأ بمســـاعدة بعض الأصدقاء .

لم يقتنع محمد علي بهذه المذبحة ، فبعث بقواته لتعقب بقية جند المماليك واقتناصهم . وكانت القاهرة مسرحاً

لاعمال السلب والنهب مدى ستة أيام ، بينما كان الجنود الألبان يستمتعون بحرية كاملة لقتل أي مملوك بجدوره وسلب ممتلكاته . وأرسل الباشا ابراهيم ابنه الأكبر عبر النيل للقضاء على من فر من المماليك الى الوجه القبلي أمام المرد الفرنسي . وقد أفلحت طائفة منهم في الهرب الى السودان ؛ ولكن بحلول عام ١٨١١ كانت القلة الحاكمة الكبيرة التي اخرجت الصليبيين في النهاية وردت الموجات المغولية على اعقابهم وحكمت مصر والشام ما يزيد على ٢٥٠ سنة من الاستقلال ، قد أبيدت في مذبحة من أبشع الذابح تخطيطا وتنفيذا منذ أن قضى العباسيون على الأمويين .

تحول محمد على الآن الى الحرب في الحجاز ، حيث كان الوهابيون وهم طائفة جديدة متشددة من المسلمين السنيين قد استولوا على مكة والمدينة واستقلوا من الباب العالي . كان الوهابيون ، وهم سلف العرب السعوديين اليوم ، يعتبرون الأتراك خارجين على الاسلام تخرقهم تعاليم القرآن مثل شرب الخمر والميسر والفسق والوثنية ؛ ورأوا أن مهد الاسلام المقدسة يجب أن تطهر منهم . وقد قويت الحركة الوهابية بانضمام محمد بن سعود الجد الأعلى للملك سعود مؤسس العربية السعودية اليها . وفي عام ١٨٠١ نهب الوهابيون وحلفاؤهم كربلاء المركز الرئيسي للشيعة ، ثم استولوا على مكة والمدينة ؛ وبحلول عام ١٨٠٥ كانوا قد اجتاحوا الشام والعراق ، وبهذا مدوا ممتلكاتهم من بالميرا الى عمان .

لقد أزعج الباب العالي ازعاجا شديدا من هذه الفتوحات في أراضيه ، وطلب الى محمد على أن يرسل جيشا الى الحجاز لطرد الوهابيين . فرحب الباشا بهذه الفرصة

التي رأى فيها فرصة ذهبية لتوسيع رقعة ممتلكاته . ولكن الحملة التي أرسلها بقيادة طوسون ابنه الأصغر الذي لم يبلغ السابعة عشر من عمره منيت بالهزيمة ، وتساقط المصريون كالذباب بفعل الوباء ونيران الوهابيين ، وظلوا عامين يعانون هذا التهديد الى ان زحف اليهم محمد علي شخصيا في عام ١٨١٣ ومعه التعزيزات . وقد كان لهذا أثره في رفع الروح المعنوية للجنود المصريين ، ثم تغير الموقف بالتدريج وأصبحت الغلبة للمصريين باسناد القيادة الى ابراهيم بعد فراغه من ابادة المماليك في الوجه القبلي . وساعد على ذلك ما نشب بين الزعماء الوهابيين من الشحناء والمنافسة . وتم لهم استرداد مكة والمدينة ، وفي عام ١٨١٨ انتقل ابراهيم لغزو نجد وتحطيم الدرعية عاصمة الوهابيين . لقد تم الانتصار للباشا ، ولكن فقط بعد سبع سنوات من القتال وبثمن بلغ اربعة أخماس قواته التي استخدمها في المعارك ، بما في ذلك ابنه طوسون الذي توفي بالطاعون قبل النصر النهائي .

لم يتوقف محمد علي سوى فترة قصيرة قبلما أقدم على مغامرته التالية ؛ وهي غزو النوبة وكردفان في السودان ، متأثرا بقصص بعض الرحالة عن وجود الذهب هناك ، وهو ما تبين خطؤه فيما بعد . ففي عام ١٨١٩ اتجه ابن آخر له هو اسماعيل في النيل على رأس حملة . ولكن قدر للباشا أن يمنى مرة أخرى بخسارة شخصية . فقد اشتعلت النار في معسكر اسماعيل الذي مات حرقا . وانتقاما لمصرعه دفع عشرون الفا من النوبيين حياتهم ثمنا ؛ وخضع شمال السودان وأصبح جزءا من امبراطورية محمد علي المترامية . ولكن المذبحة التي ارتكبت باسمه خلقت في قلوب السودانيين تلالا من الكراهية سوف تقود الى الانتقام بعد ذلك بستين عاما .

وقد سنحت لمحمد علي فرصة أخرى لتوسيع ممتلكاته عندما نشبت قلاقل في جزيرة كريت وعرض عليه السلطان الجزيرة في عام ١٨٢٦ اذا أخضع ثورة اليونانيين بها ، فرحب محمد علي بهذه الفرصة ، وبعد سنين ضمت كريت الى امبراطوريته المتزايدة .

ولكن روح القومية اليونانية ما لبث ان انتشرت في اليونان ذاتها ، وقامت ثورة خطيرة في شبه جزيرة المورة . ومرة أخرى لجأ السلطان الى محمد علي يعرض عليه المورة ثمنا للمساعدة ، مع الشام أيضا نزولا على رغبته . وفي يوليو ١٨٢٤ أرسل ابنه ابراهيم الى اليونان مع جيش قوامه ستة عشر ألفا ومئة سفينة نقل وثلاث وستين سفينة حربية . وقد سارت الأمور على ما يرام أول الأمر بالنسبة للقوات العثمانية ، واستطاع ابراهيم طرد اليونانيين والاستيلاء على أثينا . ولكن عند هذا الحد ظهرت في الصورة كل من بريطانيا وروسيا وفرنسا في محاولة لوقف القتال . وقد توسل البريطانيون بالضغط على محمد علي للمقاومة والانسحاب من المورة ، وعندما فشل أسلوب الدبلوماسية عمدت بريطانيا وفرنسا الى استخدام القوة . ففي أكتوبر عام ١٨٢٧ ظهر أسطول الحلفاء قرب نوارين أمام القاعدة التركية في نفارين قبالة الأتراك بالنيران . ودمرت السفن المصرية المشتركة بالكامل ، وبعد انقشاع دخان المعركة سببت قوات السلطان التركي والباشا المصري البحرية بخسائر فادحة ، فقد الفريقان معظمها البالغ عددها ٧٨٢ ولم يبق منهما سوى ٢٩ سفينة ، وازاء هذه الكارثة كان غضب محمد علي لا حد له ازاء عجز الأتراك الذي كلفه خيرة سفن أسطوله ، وأمر ابنه ابراهيم بالانسحاب وترك المورة للثوار . ولكن بعد مضي أربع سنوات ، واذ لم يقم السلطان بتسليمه الشام

كما وافق من قبل ، بعث الباشا بابنه ابراهيم على راس جيش من ستة عشر الف رجل للاستيلاء على الشام باسمه .

لقد اصبحت مهمة ابراهيم ايسر بانضمام الامير البناني بشير الشهابي الى جانبه وكان موتورا من السلطان . وفيما بين عام ۱۸۳۱ والسنة التالية تمكنت القوات المصرية اللبنانية المشتركة من الاستيلاء على بيت المقدس ويافا وعكا ودمشق . وكان رد الفعل من جانب الباب العالي هو عزل محمد علي من الولاية على مصر ، ولكن بعثته جيش من عشرين الفا من الاتراك زحف لصد ابراهيم ، ولكنه مني بالهزيمة ، وواصل المصريون زحفهم للاستيلاء على حمص وحلب ، واصبحوا مرة اخرى سادة : سوريا الكبرى ( ) بما فيها فلسطين ولبنان . وبحلول شهر نوفمبر عبر ابراهيم جبل طوروس واستولى على اضنة وقونية ، واصبح الطريق الى الاستانة الآن مفتوحا امامه ، ووقف السلطان المرتجف ينتظر الضربة النهائية .

لكن هذه الضربة لم تأت قط . فاذ وقف ابراهيم على تمام الاهبة للقضاء على الامبراطورية العثمانية، اكره محمد على الانتظار فترة لمعرفة ردود الفعل من جانب أوروبا . ولو انه واصل الضغط لقدالها لتغير مجرى التاريخ . فليس من شك في انه كان يستطيع الاستيلاء على الاستانة والمناداة بنفسه سلطانا بمساعدة روسيا . ولكن آخر شيء كان يريده البريطانيون والفرنسيون هو وجود الروس عند ذلك على ضفاف البوسفور وحرية انتقال سفنهم الحربية الى البحر الابيض المتوسط . وتبعا لذلك ما ان بدت أول اشارة بأن حكام سانت بطرسبرج قد اخذوا يشحذون مدافعهم استعدادا لزحف

ابراهيم على الاستانة ، حتى بادر بالمرستون فى لندن بامداد انذار شديد الى الباشا بوقف تقدمه فى آسيا الصغرى .

كان لهذا الانذار تأثيره . فقد قرر محمد على الا يناجز بجيشه القوى الأوربية اكثر من هذا الحد ، وامر ابراهيم بالعودة الى سوريا ودعم فتوحاته . واعرابا من السلطان عن شكره على خلاصه ، اعاد تعيين محمد على واليا على مصر ، واعترف بنفوذه لسوريا . والواقع أن سوريا فى ظل حكم ابراهيم المستنير نعمت بعهد من السلام كان فيه المسلمون واليهود والمسيحيون يحترمون اديان كل منهم بدرجة من التسامح لم تعرف طوال سنوات الحكم العثمانى . ولكن تمتع سوريا ومجد محمد على لم يقدر لهما الدوام اكثر من سنوات قلائل ، ذلك لأن بريطانيا قررت الآن انه لابد من سحق الباشا نهائيا : واذا كان السلطان قد انحاز الى الاستسلام فان بالمرستون لم يكن مستعدا لقبول الأمر الواقع . ومنذ ذلك الحين بدأ يضغط على الباب العالى لطرد محمد على من مجال فتوحاته .

الفصل العشرون :

إعتداءات أوروبا

في مايو ١٨٢٨ استدعى محمد على القناصل التابعين لبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وأعلن أمامهم وسط الدهشة استقلاله الشام والثماني عن السلطان العثماني .

لقد أحدث الاعلان رد فعل شديد الغضب من جانب لندن واحتجاجات أقل شدة من باريس والعواصم الأوروبية الأخرى . وجرى الضغط على الباب العالي للبت في أمر هذا العصيان الذي يمس الغضب لسلطة السلطان . ولكن كان ما يزال أمام الأتراك سنة كاملة لاتمام تجهيز جيش ضخم يضم نسبة كبيرة من الضباط الألمان تحت قيادة القائد الروسي فون مولتكه كانوا يعدونه لاخراج ابراهيم من الشام ! وعندما جاء الصدام النهائي في عام ١٨٣٩ ردهم ابراهيم الى الاناضول مدحورين . وبعد أسابيع ثلاثة وجه محمد على ضربة جديدة . فقد استطاع عن طريق الرشاوي والوقيعة اغراء أحمد باشا القائد البحري للسلطان للتوجه بالأسطول العثماني الى الاسكندرية .

وعلى الرغم من أن رد الفعل من جانب الباب العالي كان هو قبول النكسة ، الا أن ذلك كان في نظر بالمرستون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . فقد رأى الآن

بوضوح انه ما لم يتخذ اجراء حاسما فان الامبراطورية العثمانية ستسقط كفريسة دائمة في حجر محمد علي .
وفي اوائل عام ١٨٤١ اعلنت الحكومة البريطانية بوضوح ربطانيا تأييدها العسكري الكامل للسلطان . وارسلت الى محمد علي انذارا نهائيا بانه اذا لم يستسلم في الشام ويسلم الاسطول التركي في ظرف عشرين يوما فسوف يفرض عليه حصار بحري ويحرم من جميع اراضيه الثابته .

كان محمد علي اكثر ميلا الى الفرنسيين بعد ان استخدم ضابطا فرنسيا هو الكولونيل سيف الذي تخلف بعد انسحاب نابليون واعتنق الاسلام ليعيد جيشه وتنظيمه . وبالرغم من ان فرنسا نصحته بعدم الرضوخ في هذا الوقت الا انها نادته بالتخلي عن الشام والاحتفاظ باسطول السلطان ولكن مع عدم القيام باستعراضات اخرى ، مؤكدا له ان العاصفة سوف تهدأ وان البريطانيين لا يعطون حسابهم للقضية التركية .

والواقع انه لم يكن ثمة اسوأ من هذه النصيحة . فان بالمرستون حزم الأمر ، وبعد انقضاء مهلة العشرين يوما نزلت في الشام قوة مشتركة من الانجليز والاتراك تحت قيادة الاسطول البريطاني ، بينما فرضت وحدات بحرية بريطانية اخرى الحصار على الساحل المصري ، واستولى الغزاة على بيروت وعكا ، وبينما ابحرت قوة صغيرة تحت قيادة الكومودور نابيير الى الاسكندرية لتفرض على الباشا الاستسلام ، تابعت القوة البرية الانجليزية هجومها وزلزلت الهزيمة بابراهيم بن انسحب بعد آخر . وسقطت صيدا ومن بعدها طرابلس ثم طرطوس . ولم يلبث الامير بشير الشهابي ان حاد عزمه وهي مع قواته

الالبانية المؤلفة من خمسة عشر الفا . وعلى الرغم من ان المصريين استبسلوا في القتال الا ان خسائرهم كانت تتزايد باطراد . وقد اضطر ابراهيم تحت ضربات الاسطول البريطاني من البحر ومطاردته من معقل الى آخر في البر ، الى الانسحاب في النهاية مع بقية جيشه .

وفي مصر عندما اقترب نابير من الاسكندرية كان الباشا الذي تخلت عنه الآن الدول ينتظر فحسب اذا لم يحرك الفرنسيون ساكنا لمساعدته ، وخصوصا ان ابراهيم الذي كان يتراجع من الشام فقد كل اتصال مع القاهرة .

والواقع ان انسحاب ابراهيم كان صورة مصغرة لانسحاب نابليون من موسكو : فقد خسر اكثر من نصف جيشه وهو يشق طريقه عائدا الى مصر ، وكان معظم الناجين في حالة يرثى لها . وخوفا من حدوث متاعب من جانب سكان القاهرة عندما كانت البقايا المنكودة تعثر في طريقها الى العاصمة ، اعلن محمد علي ان الجرحى هم من الاسرى البريطانيين والاتراك . ولكن الحقيقة ظهرت ، واصبح مزاج الشعب مضطربا ينذر بالخطر ، حتى بعد ان سلم ابراهيم قصره في القاهرة ليكون مستشفى للمرضى والجرحى من جنوده . وزاد الطين بلة ان رئيس الوزراء الفرنسي اعلن في خطاب له انه « اذا خضع باشا مصر في رفق وسكون ، فقد يترك له مصر مع الوراثة في اسرته » . هكذا انسحبت فرنسا من دعمها في النهاية ، وبدا واضحا ان افضل ما يمكن ان يؤمل فيه الآن هو الاحتفاظ بالوراثة في مصر . لقد ضاعت الشام الى الأبد ، وضاع معها حلم محمد علي في امبراطوريته .

بعد أيام قليلة وصل الكومودور نابير الى الاسكندرية ، وكانت الشروط التي عرضها على محمد علي كرسول

للفانحين البريطانيين هي اعادة أسطول السلطان الى صاحبه الشرعي ، وانتقص من ممتلكاته في الشام ومكة والمدينة . وفي مقابل ذلك تستخدم بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا نفوذها لدى الباب العالي لضمان استمرار الاعتراف به واليا على مصر .

لم يكن أمام محمد علي من بديل سوى قبول هذه الشروط . وفي نوفمبر عام ١٨٤٠ سلم الأسطول العثماني . وفي يناير من العام التالي ثبته السلطان العثماني مرة أخرى واليا على مصر . فقد رجع محمد علي الى حيث بدأ . ولكنه نال ما يعده أهم هدف بقي في حياته — وهو الحق في تأسيس أسرة حاكمة من نسله . أما من مقدرته في اختبار بعد كانت نتيجتها عكس ما كان يأمل في تحقيقه ، فانه لم يفشل فقط في الحلول محل السلطان كحاكم أعلى للعالم العربي ولكن بريطانيا أصبحت الآن أشد نفوذا من فرنسا في الشرق الأوسط ، ووطدت ارتباطها مع الامبراطورية العثمانية سوف يستمر لأكثر من سبعين عاما الى أن سمح أعضاء جماعة تركيا الفتاة لأنفسهم بالانسياق في مشروعات تبصر ألمانيا للسيطرة على العالم ، ووجدت بريطانيا نفسها ؛ على كره منها ؛ تؤيد الثورة العربية التي قام بها حسين أمير مكة .

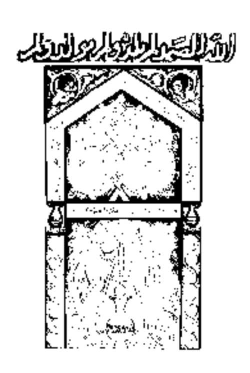
وحوالي النهاية لم يعد محمد علي متماسكا لقواه العقلية . وبدأت تنتابه نوبات من الغضب الصاخب والنورستانيا البائسة . وحينما توفي في النهاية في ثمانين عاما ؛ في أغسطس ١٨٤٩ ؛ كان قد بلغ حد الخرف الكامل .

***

قيل انه مؤسس مصر الحديثة ، ولكنه كان يستخدم أساليب قاسية لابتزاز الضرائب من رعاياه حتى يدفع

رواتب جنوده وتكاليف تطوير البلاد . وكان التعذيب بالعلقة أي جلد الاقدام بسياط من جلد الجاموس هو أسلوبه في معاقبة المتهربين من الضرائب والمسجونين . والنتيجة من هذا أنه حول معظم الأراضي الصالحة للزراعة في مصر ، بما في ذلك وادي النيل كلها ، الى ضيعة شخصية للباشا ! ولكثير من هذه الأراضي انتقلت في يد حفيده فاروق حتى ثورة ١٩٥٢ ! ؛ ولن نبخس في هذا النهب بعض الاصلاحات التي قام بها ، كالاستعانة بالعلماء والفنيين الأوروبيين لتنمية موارد مصر ، وادخال زراعة القطن من السودان ، وانشاء أول مدارس الهندسة والطب الحديث بمصر . ولا يعني هذا انه الآن يسير في مصر أو يمضي بها بصورة جدية الى التقدم منه ، فالواقع ان الفلاحين كانوا لا يزالون يعيشون بنفس الفقر المدقع في عام ١٨٥٠ ؛ وكانوا أكثر الوقت لا يسألون ثمن المحاصيل التي يستولي عليها مفتشوا الحكومة لبيعها لصالح الدولة . وكانت كل التجارة ، من واردات وصادرات ، وأرباح الملاهي ؛ ومبيعات الغلال أو حتى الاشجار ، تخضع لضريبة قدرها ١٠ في المائة ، ولكن البيوت والأرض كانت معفاة ؛ حتى ان أكبر مالك للأرض في مصر او المالك الوحيد بالفعل ، وهو الباشا ، لم يكن يدفع ضريبة على ممتلكاته . وهكذا كانت الفوارق بين الأغنياء والفقراء شاسعة . ولا عجب أن يكون هذا بعد أن قام حكمه على الكرباج والابتزاز والاغتصاب الأراضي .

وعلى النقيض من أبيه نهج ابراهيم في الشام نهجا قائما على التعاون مع الأهالي والتسامح حيال الأديان الثلاثة . ولذا كانت مأساة الشام حرمانها من حكم ابراهيم



الســماح بها رسميا سنوات بسبب تدخل بالمرستون ـ
وقد كانت ماساة مصر أعظم اذ لم يمض بعد وراء ابيه
ليشرف على بناء قناة السويس : فلو ان هذا حدث لكان
من المرجح ألا تخســر مصر نصيبها في هذا الاستثمار
الضخم . لكن الذي حدث هو ان اسماعيل بن ابراهيم
الذي تولى باشوية مصر في عام ١٨٦٣ أسرف وتخبط
في الانفاق حتى رهن مستقبل مصر كلية بعد اثني عشر
عاما ، واضطر الى بيع حصة مصر في شركة قناة السويس
الى الحكومة البريطانية ، وهكذا اهتدت الى بريطانيا ،
ومعها فرنسا ، الرقابة المالية على مصر ، بعد هذا لم تكن
الحكومة البريطـــانية بحاجة الا الى ثورة مسلحة ضد
(المراتبين) لتكون ذريعة لفرض احتلالها العسكري على
البلاد ، فعندما قامت ثورة احمد عرابي على راس الجيش
المصري في عام ١٨٨١ ضد الحكم الاســتبدادي للخديوي
توفيق وضد الرقابة الانجليزية الفرنسية ، تحالفت عوامل
كثيرة للقضاء على الثورة في موقعة التل الكبير ، ومنذ ذلك
الحين اصبح المعتمد البريطاني العام سير ايفلين بارنج
(اللورد كرومر فيما بعد) حاكم مصر الفعلي ، بمساعدة
جيش احتلال بريطاني يساند كل قراراته .

القسم الثاني

ريـــح التغـــيير

الفصل الحادي والعشرون :

ثورة المهدي

يعادل السودان في مساحته أوروبا الغربية بما فيها اسكندنافيا . وفي التاريخ القديم لم تتعرض له الامبراطورية الرومانية . أما النوبة التي تبلغ مساحتها ربع مساحته . فقد فتحتها الجيوش المصرية ثلاث مرات . انتزعها صلاح الدين لتكون ملجأ له عندما خشي ان تعزله من حكومة مصر نور الدين . وفتحها بيبرس كعمل مباشر من اعمال التملك الامبريالي . واتخذها محمد علي لاعتقاده الخاطئ بانه سيجد فيها الذهب .

وكانت النوبة منذ العصور القديمة متخصصة في تجارة الرقيق . في ان مناطق أخرى مثل كردفان ودارفور وبحر الغزال والاستوائية ظلت تشتغل بتجارة الرقيق حتى عام ١٨٧٧ ، عندما عين اسماعيل خديوي مصر الجنرال غوردون البريطاني حاكما عاما على هذه البلاد الرحبة الاطراف ؛ إذ كان يعلم تماما أن غوردون سوف يقضي على تجارة الرقيق بعد أن كان الساخطون الاتراك قد افسدوا كل شيء . وإذا كان غوردون قد وفق في هذه المهمة ونال احترام السكان بالقضاء على تجارة الرقيق والرشوة والفساد — فان تآمر بريطانيا مع الباب العالي في عام ١٨٧٩ الذي اسفر عن طرد اسماعيل وتولية ابنه

توفيق ، حمل غوردون على الاستقالة كحاكم عام .

وكان غوردون يعرف جيدا أسرارا شخصية يمكن ان يجمع عليها الاخيار ، فقد عادى الرعونة والابتزاز والفساد في كل مكان . واصبح السودان الآن مهيأ للثورة التي لم تكن تتطلب سوى زعيم يذكي نارها . وبعد قليل من رحيل غوردون وجد هذا الزعيم في شخص محمد احمد بن سيد عبد الله ابن احمد سلي الرواق البارز ، الذي اتخذ لنفسه في عام ١٨٨١ لقب (المهدي) ، واقسم ان يخلص الشعب السوداني من ظالميه .

ولد محمد احمد عام ١٨٤٨ في دنقلة عاصمة النوبة ، ودرس في أول حياته الفقه الاسلامي ؛ ثم انتقل الى بربر لدراسة تؤهله لوظيفة دينية . وما ان بلغ الثلاثين والعشرين حتى اعترف به الكثيرون واعظا ومعلما ، واشتهر عنه الزهد والتقشف فأقام في غار بجزيرة ابا الغربية من بربر حيث كان وعظه ينفذ الى القلوب .

وكان منذ اوائل حياته يكره الاجانب الذين يحكمون وطنه سواء كانوا من اصول تركية او مصرية او شركسية وما شابهها . وكانت خطوته المهمة الاولى هي الطواف والقيام بعملية استكشافية واسعة في النوبة وكردفان لتقييم استعداد الشعب للثورة .

كانت رحلته باعثة على الرضا : نداء الى ان يعود الى الدين السالف عند الاوائل . وكان يربط في دعوته بين الاصلاح الاجتماعي والبعث الروحي . ولم يخش ان يكتسب زمرة من المؤيدين في مقدمتهم عبد الله التعايشي الذي ينتمي الى قبيلة البقارة وهم فرسان اشداء من قلال النوبة .

وإذا كانت السلطات لم تقم له وزنا في أول الأمر ، فإن رءوف باشا لم يلبث أن تحرك للتصدي على الثورة في مهدها بعد انضمام قبيلة البقارة بكاملها إلى المهدي ، فأرسل قوة من مائتي جندي بقيادة ضابط للقبض على محمد أحمد ومحاكمته . ولكن القوة وقعت في كمين من أتباع المهدي وارتدت مهزومة إلى العاصمة في الخرطوم . وكان هذا أول صدام مع السلطات تصالحه ، مما زاد من مكانته .

وفي هذه المرحلة اختار المهدي أن ينسحب إلى كردفان ليكون بعيدا عن مركز العمليات الرئيسية وليزيد من تأييد القبائل له . وفي ديسمبر عام ١٨٦١ هاجم قوة من ألف وأربعمائة جندي أوقعها في كمين وأبادها وغنم أسلحتها الحديثة وذخائرها ، الأمر الذي ضاعف من قوته إذ كان رجاله مسلحين بالعصي والرماح فقط .

ولم يلبث محمد أحمد أن أعلن « الجهاد » ضد الأتراك وجميع الكفار في السودان . ولجأ إلى أسلوب حرب العصابات التي أوقعت من هزائم جنود العكومة خصوصا في حر السودان وقيظه ، وفي يونيه عام ١٨٨١ هزم قوة حكومية قوامها ستة آلاف جندي بالقرب من فاشودة ، وبعد أشهر قلائل كان رجال المهدي يسيطرون على كل كردفان ودارفور ، وفيما عدا مدينتي الأبيض وبارة مقر العمليات الرئيسية .

كانت الأبيض مدينة كبيرة عامرة بها مئة ألف من السكان . وقد حاول المهدي أول الأمر الاستيلاء عليها بالقوة ، بيد أنه فشل وخسر زهاء عشرة آلاف رجل . ففرض عليها حصارا شديدا دام ثلاثة أشهر حتى استنفدت الحامية القوت جوعا مما اضطرها إلى

الاستسلام . وهكذا سقطت الأبيض في ايدي رجال المهدي الذين غنموا المدينة وغنموا فيهـــــا خمسة آلاف بندقية .

اثار ذلك انزعاج الخديو توفيق ، فأرسل قوة من عشرة آلاف جندي بقيادة ضابط بريطاني يدعى الكولونيل هكس . ولكن حملة هكس ظلت طوال شهرين عاجزة عن احراز اي تقدم . ولم يلبث المهدي أن هاجمها بقوة من خمسين ألفـــا من رجاله الذين أصبحوا يعرفون باسم (الأنصار) . وفي خلال ربع ساعة قضى على العشرة آلاف من جنود الحكومة ، بما فيهم هكس قائد الحملة .

كان لهذه الهزيمة تأثير الطوفان الجارف . وكما قال أحد المؤرخين " فان السودان بعدها وكان سدا قد تفجر فيه : وتدفقت العقيدة المهدية) . والواقع ان عدواها لم تلبث ان سرت الى مدينة (درة) عاصمة دارفور ، وكان بها حامية سودانية وقد أسلم محافظها النمسوي رودلف كارل فون سلاتين استرضاء لرجاله الحاضرين في المدينة . ولكن المدينة اضطرت الى الاستسلام بعد شهر ، وأسر سلاتين الذي عفا عنه المهدي لاسلامه .

واخذ المهدي يدعم سيطرته على السودان الغربي ، وفي فبراير عام ١٨٨٤ هدد سواكن على البحر الاحمر . وفي خلال ذلك هزم قوة جديدة أرسلها الخديوي بقيادة الجنرال بيكر البريطاني . واصبح الآن يسيطر على أرض تربو مساحتها على نصف مليون ميل مربع من سواكن شرقا حتى وسط السودان . واخذت قبائل الجنوب تنضم الى جانب الثورة تباعا .

في هذه اللحظة بدأت لنـــــدن ترى ان ما يجري في السودان أصبح يشكل تهديدا لمركزها في مصر . وعند

نهاية عام ١٨٨٣ أقنعت الجنرال جوردون بالعودة إلى الخرطوم وموافاتهم بتقرير عن الوضع .

وحينما وصل جوردون إلى الخرطوم في فبراير عام ١٨٨٤ كانت قوات المهدي تحاصرها من كل جانب باستثناء الطريق النهري الذي كانت تحرسه بواخر مسلحة .

وبينما راح جوردون يعمل على تحصين موقفه الضعيف في الخرطوم حاصر رجال المهدي مدينة بربر الواقعة على النيل على مسافة ثلاثمائة ميل شمال الخرطوم . وكالعادة استسلمت حاميتها بتأثير الصدمة ، وهكذا انقطعت آخر صلة لجوردون مع مصر والشمال . ولم تمض أسابيع قليلة حتى استسلمت أيضا حامية بحر الغزال ، وبهذا تلاشى آخر أمل في الحصول على مساعدة من الجنوب .

وحاول جوردون المحاصر في الخرطوم إرسال رسل إلى القاهرة لكي تنجده بقوة تخفف الضغط والحصار المستحكم من حوله ، ولكن الرسل وقعوا في أيدي رجال المهدي الذي عرف الآن محنة جوردون وتعداد قواته .

عندئذ خرج المهدي من مقر قيادته قرب الأبيض على رأس مائتي ألف من رجاله في طريقه إلى الخرطوم . ولكنه لم يبادر بالهجوم للتأثير على الروح المعنوية للحامية ، وعندما جاءت الحركة بعد ثلاثة أشهر لم يكن الهدف الخرطوم بل أم درمان الواجهة للعاصمة على الشاطئ الغربي للنيل ، وباستيلاء أم درمان في العاشر من يناير فقدت الخرطوم كل أمل وهي محاصرة بعشرات الألوف من الأنصار .

وفي فجر يوم ٢٦ من نفس الشهر أمر المهدي بالهجوم الشامل على الخرطوم . وقد هربت حاميته التي استولى عليها الذعر والفزع . وسقط جوردون مضرجا بالرماح .



واقترن ذلك بمذبحة رهيبة حتى قيل ان عشر سكان الخرطوم البالغ عددهم اربعين الفا لقوا مصرعهم .

ولكن المهدى لم يفسح له كثيرا فى الأجل للاستمتاع بما نال من مكانة بلغت حد القداسة . فقد توفى بعد خمسة اشهر ، فى يونيو عام ١٨٨٥ بمدينة ام درمان .

وقد خلفه عبد الله التعايشى ، وخلال اثنتى عشرة سنة التالية ، ورغم المجاعة والجدرى اللذين قضيا على أكثر من نصف السكان ، فقد تمكن من الاحتفاظ بالسودان ضد مصر وبريطانيا . بل انه زاد من املاكه بالاستيلاء على كسلا وسنار فى الشرق ، والرجل جنوبا فى اتجاه اوغندة ، ولم يسقط قبل عام ١٨٩٩ عندما غزا الجنرال (اللورد فيما بعد) كتشنر – السودان بقوة بريطانية حديثة من عشرة آلاف من المشاة والمدفعية والفرسان (وكان منهم من اشتهروا فيما بعد ، مثل ونستون تشرشل) . لقد غلب الجيش المهدى على أمره ومزق شر ممزق عند ام درمان ، ورغم فرار عبد الله فقد اسر فى النهاية وقتل ، وبعد ذلك حكمت بريطانيا ومصر السودان سويا ، مع حاميات بريطانيه ومصريه وحاكم عام بريطاني يعين من قبل العاهل البريطاني وخديو مصر .

ومهما قيل فى الحركة المهديه ، فانه فى الوقت الذي كان العالم العربي لا يزال يتخبط فى قبضة التعاليه من حوله ، استطاع ابن لاحد بنائي الزوارق من وادي النيل ، ان يبين للعالم كيف ان مجموعة من رجال القبائل المسلحين اولا بالعصى والهراوات ، والمزودين فى قلوبهم بالايمان والوحدة ، تهيأ لها ان تتحد وتحقق التفوق فى وجه أعظم قوة فى العالم .

الفصل الثاني والعشرون :

شيخ العثمانيين
وشباب الأتراك

اقترن تولي السلطان عبد الحميد العرش في عام ١٨٧٦ بتدهور العلاقات مع أوروبا وزيادة الاعتداءات الأوروبية على الامبراطورية التركية . وما أن انقضى عام على توليه العرش حتى انهزم أمام روسيا بعد نضال طويل حول الأراضي المتنازعة في البلقان والقوقاز ، وبعد أربع سنوات ، في عام ١٨٨١ استولت فرنسا على تونس من الأتراك ، وفي السنة التالية كان خديوي مصر تابعا لبريطانيا بسبب جيش الاحتلال على أراضيه ، رغم الاعتراف بسلطة الباب العالي اسميا في مصر والسودان .

ولم يلبث عبد الحميد أن أدرك أنه في حاجة إلى حركة استعراضية إذا أراد أن يزيح القوى الأوروبية عن كاهله ويستعيد مكانة السلطان العثماني في العالم العربي . إن سياسة الباب العالي القديمة التي قامت حينا على إثارة النعرة الدينية بين المسلمين والنصارى لكي يبددوا قواهم في مقاتلة بعضهم بعضا لم تعد تجدي نفعا أمام بعض نزعات العروبة الحديثة المتسامية بالوحدة بين جميع الطوائف .

وهكذا واجه السلطان ضغط القوى الأوروبية عليه بإعلانه عام ١٨٧٦ إدخال نظام دستوري للحكم واختيار

سياسي متحرر هو مدحت باشا لمنصب كبير الوزراء ، مستهدفا بذلك اقناع الاوروبيين بأن تركيا في عهده تلبس مسحة جديدة . ولكن لم تنقض ثلاثة أشهر حتى تجددت الحرب بين روسيا والامبراطورية العثمانية ، وأبطل العمل بالدستور الليبرالي الجديد .

وقدر لحركة أخرى قام بها عبد الحميد أن تكون أطول عمرا . معتمدا على استمالة العرب المسلمين في الامبراطورية ، فرد أحياء ما كان للخلافة من قوة ونفوذ روحيين ، بعد أن ظل لقب الخليفة نحو اربعمائة عام مجرد لقب ليس له معنى حقيقي .

وهكذا أصبح عبد الحميد خليفة وسلطانا ورعا ، يحرم شرب الخمر في الاستانة ، وغدا الاسلام من أصحابه الغالبين ، وأنشئت مدارس جديدة لتدريس علوم الدين وتدريب رجال الوعظ والارشاد . وكسب ود العرب بين ثنايا سكرتيرا له ، كما عين عددا من العرب البارزين في وظائف مهمة مركزية . وأصدر قرارا بأن تكون فرقة من حرسه الخاص عربية بحتة . وكان من أهم مشروعاته انشاء سكة حديد الحجاز اختصارا لطريق الحجاج البري من دمشق الى مكة ، وان كان لم يتجاوز المدينة ، وكان هدفه الحقيقي هو سرعة نقل القوات لمواجهة أية قلاقل في الحجاز أو جنوب شبه الجزيرة العربية ، حيث كان للأتراك حامية دائمة من أربع فرق .

ومن دواعي الأسف أن سياسة عبد الحميد التي تراوحت بين الاستبداد والخديعة أثبتت فشلها . وانه في جميع أرجاء الولايات العربية التابعة للسلطان هبت حركة القومية العربية ، وأن الحركة التي قدر لها أن تطيح بعبد الحميد نشأت من دوافع تركية ، لا عربية ،

فبعد ابتداء القرن العشرين بوقت قصير نشطت في سالونيك جماعة من الأتراك الشبان أطلقوا على أنفسهم اسم « لجنة الاتحاد والترقي » ، كرست نفسها للقيام بواجب هو إلغاء الحكم الاستبدادي وإحياء الدستور الليبرالي الذي ظل موقوفا أكثر من ثلاثين عاما . وفي يوليو عام ١٩٠٨ ضربوا ضربتهم ؛ وأعلن عن وقوع انقلاب عسكري حمل عبد الحميد الاستبدادي على إعلان موافقته على إعادة الدستور والإفراج عن المسجونين السياسيين . ولكن جمعية « الاتحاد والترقي » قضت في النهاية بعزله وعينت مكانه أخاه محمد رشاد الذي أصبح أداة طيعة في أيديها .

والواقع أن هذه الثورة أحدثت موجة عارمة من الفرح في كافة الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية ، بيد أن هذه الفرحة لم تدم طويلا . ففي أول انتخابات تجرى في ظل هذا الدستور اكتشف العرب حقيقة « ليبرالية » نظام الحكم الجديد . فقد حدث تلاعب في الدوائر الانتخابية أدى إلى إعطاء ١٥٠ مقعدا في البرلمان الجديد للمرشحين الأتراك ، و ٦٠ مقعدا فقط للعرب ، وفي مجلس الشيوخ الذي يعين السلطان أعضاءه كانت النتيجة أسوأ بالنسبة إلى العرب ، إذ لم يحصلوا إلا على ٣ مقاعد من (٤٠) مقعدا . وهكذا ، وبعد أن استخدمت « لجنة الاتحاد والترقي » الدستور للحصول على نتيجة الانتخابات التي يريدونها ، شرعوا يفرضون على الولايات العربية نظاما للحكم أشد مركزية من نظام عبد الحميد .

زالت الأوهام من الزعماء العرب بعد اكتشاف حقيقة رجل تركيا الحديثة ؛ وبدأت حركة القومية العربية تنشط من جديد ؛ وفيما بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١١ تشكلت عدة

جمعيات سرية عربية ، بعضها يهدف الى فكرة اللامركزية الثنائية على نمط امبراطورية النمسا والمجر ويتمتع فيها العنصر العربي بالاستقلال الداخلي ، وبعضها يطالب للعرب بحكم ذاتي كامل في كل شيء باستثناء الشئون الخارجية والدفاع والمالية القومية وبعد موجة من المظاهرات العامة في الشام وفلسطين والعراق ؛ ومن اضطهاد جواسيس الأتراك لقادة هذه التحركات ـ اضطروا الى طلب الامان في باريس كعاصمة لنشاطهم .
وفي ابريل عام ١٩١٢ انعقد في باريس مؤتمر عربي للتعبير عن مطالب العرب ، وقد حاول الباب العالي دون هذا النشاط ؛ ولكن عندما رفضت الحكومة الفرنسية أن تتعاون في هذا السعي : أرسل مبعوث للتباحث مع الثوار . وكانت النتيجة اتفاقية أقرتها الآستانة فيما بعد ، تقضي بأن تصبح العربية اللغة الرسمية .. في الولايات العربية بالامبراطورية ويجري تدريسها في جميع المدارس ، وأن يكون للعرب تمثيل في وزارة السلطان ، ومزيد من الرأي في الحكم الاقليمي . ولكن في اغسطس من نفس العام أصدر الباب العالي مرسوما كان في ظاهره المصادقة على اتفاق باريس ؛ وفي حقيقته نسخ أهم أحكامه وخاصة ما يتعلق باللغة العربية .

بدأ رجال تركيا الحديثة يستخدمون القمع بعد الخديعة ، فاعتقلوا يعتقلون بالجملة كل من يشتبهون فيهم من الوطنيين العرب . وكان من الضحايا الذين استهدفوا للانتقام البكباشي عزيز علي المصري ، وكان ضابطا شابا في هيئة أركان الحرب التركية من أصل مصري تركي ؛ فقد قبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة ، كان عزيز شخصية كبيرة وسجل عسكري ودبلوماسي ممتاز ، وكانت له يد في مساعدة زعيم برقة السنوسي سيد أحمد في

قتال الإيطـــــاليين عند غزوهم ليبيا في عام ١٩١١ واستيلائهم على البقية الباقية من ممتلكات العثمانيين في شمال افريقية . وازاء ما تقـــرر من ان هذا الوطني العربي المشهور قد ارتكب جريمة الخيانة وحكم عليه بالإعدام ـ غلت مراجل الغضب ضد تركيا ، وقامت المظاهرات في القاهرة ـــ مسقط رأسه ، واقسم الضباط العرب في الجيش التركي على الانتقام له اذا نفذ فيه حكم الاعدام ، وعندما سرت الضجة الى الصحافة البريطانية قدم الســـفير البريطاني في الآستانة احتجاجا للباب العالي ، مما ادى الى تخفيف الحكم الى الاشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما . ولكن الزعماء الوطنين العـــرب واصلوا حملتهم الى ان الغى الحكم في النهاية ، فعاد عزيز الى مصر واستقبل استقبال الأبطال ، وأعيد الى وضعه في الجيش ، وأصبح بعد وقت مفتشا عاما للقوات المسلحة المصرية .

لقد ارتكب الباب العالي خطا كبيرا ، فان الجماهير العربية قد اثيرت لأول مرة . وكانت هذه نقطة اللامركزية في شأن الثورة العربية . كان زعماء القوميين العـــرب يكتفون في مطالبهم بالتأكيد على اللامركزية والاســـتقلال الداخلي في نطاق النظام العثماني دون كلام عن الانفصال. ولكن حادث عزيز المصري الذي جاء على قمة تنكر الباب العالي لاتفاق باريس ، ادى الى تصلب الراى العام العربي ضد اي وفاق جديد . والآن وقد تحول الراى العام العربي في اتجاه الاستقلال التام ، ما لبث ان ظهر زعيم جديد كان مركزه هذه المرة مدينة مكة .

الفصل الثالث والعشرون :

الثورة العربية

كان أمير مكة هو حسين بن علي من بني هاشم ، وفي عهد السلطان عبد الحميد أجبر هو وأبناؤه الأربعة (علي وعبد الله وفيصل وزيد) على الإقامة في الآستانة ليكونوا تحت نظر السلطان ، فلما جاء رجال تركيا الفتاة واحتفوا بصداقته وهيامه بالجامعة بدا لهم أنه قد يستجيب إلى حركتهم إذا عينوه في منصب حكومي رفيع في الولايات العربية ، ولما كانت التقاليد تقضي بأن يكون أمير مكة من بني هاشم ، فقد عينوه في هذا المنصب .

ولم يمض وقت حتى أدركت الجماعة غلطتها بهذا التعيين ، وذلك عندما أخذ حسين يركز سلطانه الشخصي على قبائل الحجاز خارج المدينة . وحدث في بداية عام ١٩١١ عندما أخذ الشعور القومي العربي يغلي بسبب محاكمة عزيز المصري ، أن وجد أمير مكة نفسه في مركز استراتيجي معززاً بالسلطة الروحية وتأييد القبائل ، مما يهيئ له أن يطرح النير التركي ويرفع راية دولة عربية مستقلة . وكان العنصر الوحيد الذي ينقصه هو المؤازرة المسلحة من جانب دولة عظمى ، وهو ما أخذ حسين يسعى إلى التماسه عند البريطانيين الذين الي

له ان يجب بأساليبهم الدبلوماسية النزيهة في الظاهر لتلك الدعاية الاستعمارية الخطيرة في الاستانة . فأوفد اليهم ابنه الثاني عبد الله الذي كان نائبا في البرلمان التركي وكان يتمتع بالدهاء والدبلوماسية . وفي فبراير عام ١٩١٤ توجه عبد الله لزيارة اللورد كتشنر المندوب البريطاني في القاهرة وحاكم مصر الفعلي . وقد عرض عبد الله في حديثه الى تحفز قبائل الحجاز للثورة ضد الباب العالي ، وتساءل في تحفظ عن موقف بريطانيا في حالة اشتباك العرب مع حلفائهم الاتراك . واذا كان كتشنر قد اجاب بان بين بريطانيا وتركيا صداقة طويلة الأمد مما لا يسمح لها بالتدخل في الشئون الداخلية لممتلكات السلطان ، فان افكاره لم تكن مطابقة لجوابه الرسمي . ذلك انه شهد خلال الثلاثين عاما السابقة تزايد سياسة "المانيا" الى الزحف نحو الشرق ، الذي بدأ بوصول بعثة عسكرية المانية لتدريب جيش السلطان ، ثم زيارة وليام الثاني قيصر المانيا بعد خمسة عشر عاما الاستانة للحصول على امتياز لالمانيا لبناء السكة الحديدية بين تركيا وبغداد . وقد بدأ الرجل مثل كتشنر ان في امكان الالمان فضلا عن الاتراك استخدام سكة حديد بغداد وسكة حديد الحجاز لمهاجمة مواصلات بريطانيا الامبراطورية في الخليج العربي ، والبحر الأحمر ، وقطعها .

وكان هناك تهديد آخر للامبراطورية البريطانية من ازدياد الصداقة بين تركيا والمانيا ، فلو نشبت حرب بين بريطانيا والمانيا كان الاحتمال قائما لدخول تركيا الحرب الى جانب المانيا واعلان « الجهاد » ضد « الكفرة » الذين يحتلون الأرض الإسلامية . ولا شك ان استجابة العرب لذلك سوف تعرض للخطر مركز بريطانيا في مصر وعدن ، فضلا عن مراكز حليفتها الفرنسية الجديدة في

الجزائر وتونس ، وكان كتشنر قد امضى فترة طويلة
في مصر والسودان اثناء ثورة المهدي وبعدها بحيث
لا يستهين باحتمال كهذا . وهكذا بدا له الآن ان ما يعرضه
حسين امير مكة يمكن ان يؤدي الى القضاء على هذا
التهديد ، وان قيام تفاهم بين بريطانيا وامير مكة كفيل
بالقضاء على خطط تركيا والمانيا . وهكذا بعث كتشنر
برونالد ستورس المستشار الشرقي في دار المعتمد
البريطاني وقتذاك لرد الزيارة لعبد الله وابقاء باب
الاتصال مفتوحا معه ومع والده .

لكن عبد الله لم ينتظر طويلا ، فحالما نشبت الحرب
بين بريطانيا والمانيا بعث كتشنر الذي اصبح وزير الحربية
في بريطانيا برسالة الى عبد الله يستفسر فيها عما اذا
كان والده سينضم الى جانب الاتراك ، او البريطانيين
اذا انضمت تركيا الى المانيا في الحرب ضد بريطانيا .
لقد كانت بريطانيا في حرب حياة او موت وفي حاجة
الى مساعدة العرب لها .

كانت هذه هي الفرصة التي طالما انتظرها حسين . ولكنه
كان يريد ضمانا من بريطانيا بان العرب سوف يحصلون
على الاستقلال اذا انتصر حلفاؤها وانهزم الاتراك ، وان كان
من رأي ابنه فيصل ان العرب يمكن ان ينالوا مكاسب
اكبر اذا انضموا الى تركيا .

وظل الموقف غامضا بين الطرفين الى يوم ٢٩ اكتوبر
عندما دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا . فقد اكدت
بريطانيا لحسين في مذكرة بعث بها كتشنر انها في مقابل
تأييد حسين لبريطانيا ضد الاتراك فانها ستضمن مركزه
كأمير لمكة وتؤيد جهود العرب في نيل حريتهم .

ورغم ذلك سلك حسين مسلك المراوغة وكسب

الوقت . فقد رد على بريطانيا بانه حالا يتم جمع قواته سوف يوجه ضربته الى الامبراطورية العثمانية .

ومن ناحية اخرى رد على رسائل انور باشا رئيس وزراء تركيا وجمال باشا حاكم الشام لحثه على الاشتراك في اعلان « الجهاد » ضد بريطانيا بانه لا يستطيع ان يفعل هذا علنا خوفا من حصار بريطانيا لسواحل بلاده .

لكن الاتراك سرعان ما فطنوا الى مناورات حسين ، وبحلول فبراير عام ١٩١٥ قرر الباب العالى ازاحته من الطريق بالعمل على اغتياله . ولكنه فطن الى هذه المؤامرة عن طريق جواسيسه . فاوفد ابنه فيصل الى الاستانة للاحتجاج – ظاهريا – على هذا التصرف . ولكنه كان يهدف في الحقيقة الى الاتصال بزعماء العرب في الشام والعراق لمعرفة مدى استعدادهم في المشاركة اذا قامت الثورة ضد الاتراك .

وفي عودة فيصل الى مكة بعد اتمام مهمته لدى الباب العالي والعروج على دمشق ، جاء معه بمذكرة من الزعماء العرب بانهم لا يمكن ان يلتزموا بثورة سافرة ضد الاتراك بدون ضمانات صريحة من بريطانيا لاستقلالهم ، وطالبوا في هذه المذكرة بان تعترف بريطانيا باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية ، باستثناء عدن ، وبعقد معاهدة دفاعية مع الدولة العربية التي سوف تقوم في نطاق هذه الاراضي .

هكذا وجد حسين الحل الامثل الذي كان ينشده بعد ان بدا له الآن انه في مركز يمكنه من تقديم شروطه الى بريطانيا متحدثا باسم « الشعب العربي » ، فكتب الى السير هنري مكماهون الذي خلف كتشنر في مصر يدعوه الى الموافقة على الشروط التي جاءت في مذكرة

دمشق ، وأضاف انهما لن تؤيد بريطانيا ، اعلان
خلافته عربية للاسلام » ، عملا بما تفاهم عليه في ذلك
مع كتشنر من قبل .

لكن بريطانيا كانت أكثر مراوغة مع حسين . فان رد
مكماهون برسالة لم تذكر شيئا فيها عن سوريا ولبنان
وفلسطين والعراق ، وتحدثت عن شبه الجزيرة العربية
بعبارات غامضة ، مبينة أنه لا يتحدث عنها وهي مشتبكة
في حرب أن تضع الحدود الدقيقة للاستقلال العربي .

وتوالت بعد ذلك مكاتبات متعددة بين الطرفين أكد
فيها حسين أن العرب يطلبون الاستقلال للشام كلها ،
ولكنه وافق أخيرا على تأجيل اتخاذ قرار بشأن الحدود
الى ما بعد الحرب ، وعلى أن يتعهد من حسن نية بريطانيا .

كانت محصلة هذا كله بعيـــدة جدا عن التعرفات
الدقيقة لما جاء في مذكرة دمشق . وعلى الرغم من أنه
ما من شيء كان يبرر خيانة بريطانيا وفرنسا لوعدهما بعد
للعرب باتفاقية سايكس ــ بيكو السرية والصريح تكون ،
فقد كان من الخارق للمألوف أن يقبل حسين هذه المكاتبات
ضمانا كافيا يعتمد عليه في بدء الثورة العربية ، وان يكون
مثل هذه الدرجة من التصديق في تعامله مع البريطانيين .
ولكن يبدو أنه عمل هذا لأنه كان يريد الثورة ، التي
كانت تعتمد تماما على امدادات الأسلحة والذخيرة من
بريطانيا .

وبينما أخذت الاستعدادات للحرب تجري في الحجاز ،
تغيرت سياسة الأتراك فجأة واتجهت الى الشدة ، حيث
طلب جمال باشا حاكم الشــام من حسين ارسال ابنه
فيصل الى دمشق كرهينة تضمن حسن سلوك العرب .
فاستصوب حسين الامتثال بدلا من مواجهة مع الأتراك قد

لقد حطمه . ولكن في مايو عام ١٩١٦ جن جنون جمال بسبب فشل الجيوش التركية في الاستيلاء على مصر . وعجزه عن اقتناص المتآمرين الحقيقيين الرئيسيين ، وقبض ذلك القبض على واحد وعشرين من الوطنيين البارزين في دمشق وبيروت واعدموا شنقا في السادس من مايو ١٩١٦ .

ان هذه المحاولة الهمجية بقمع مزيد من المقاومة العربية كان له أثر عكسي . فسرعان ما تحولت حماسة فيصل الى اتجاه عارم للقتال . وبينما كان ظاهر رغبته في حشد قوة من المتطوعين العرب في الجيش التركي ، سمح له بمغادرة دمشق ، واتجه من فوره للانضمام الى والده . وفي خلال ذلك كان قد رتب مع حسين ان تبدأ الثورة العربية حال عودته الى الحجاز . ولم يرد حسين من ناحيته ان ينتظر اكثر من هذا الحد . بعد ان علم من جمال ان قوة مشتركة من الالمان والاتراك قوامها ثلاثة الاف وخمسمائة كانت في طريقها لتعزيز الحاميات العثمانية في جنوب بلاد العرب .

وعند وصول فيصل الى المدينة ا وجد ان الالاف من افراد العرب : لكونهم من غير المسلحين ؟ قد منعوا من سلوك الطريق المباشر الى مكة واخذوا يتجمعون عن طريق ينبع على الساحل . وبزوال هذا الخطر بنجاة فيصل من قبضة جمال ؟ اصدر حسين الأمر الى قبائل الحجاز بأن تهب وتعلن الاستقلال العربي . وفي العاشر من شهر يونيو هوجمت الحامية التركية في مكة بنيران البنادق . وظلت المعركة مستعرة مدى ثلاثة اسابيع : كان الأتراك يرددون خلالها نيران المدفعية التي لم يكن لدى رجال حسين شيء منها ، ولكن عندما

ارسلت على عجل بطاريتان مصريتان من المدفعية من الجيش البريطاني في مصر . وانهال القصف المدفعي على الأتراك ، فما لبثوا أن سلموا المدينة في التاسع من شهر يوليو . وبعد ذلك بأسبوع سقطت جدة في أيدي قوات حسين ، وتقدم عبد الله للاستيلاء على الطائف حيث كانت الحامية التركية تصطاف في الجو الجبلي البارد . وبحلول شهر سبتمبر سقطت رابغ والقنفذة على الساحل ، كما سقطت ينبع بعد تطويق القوة الألمانية بها وتسليمها إلى وحدة بحرية بريطانية كانت تساند الزحف العربي على امتداد ساحل البحر الأحمر .

وفي خلال ذلك ثارت ثائرة جمال باشا في الشام حتى أطلق حملة من الإرهاب والاعتقال والتعذيب بل والإعدام لزعماء العرب البارزين لم يكن لها مثيل إلا في العصور الوسطى . ولم توقف هذه العمليات إلا بعد أن هدد حسين بالانتقام من الضباط الأتراك الذين أسروا في مكة والطائف .

وعلى الرغم من ذلك فقد رأى جمال باشا أنه إذا لم يتمكن من القضاء على الوطنيين ، فبإمكانه تجويع الشعب ذاته لإضعاف قواه . وكانت المجاعة قد بدت في بعض أنحاء سوريا الكبرى لأن الجراد أتى على المحصول في الربيع السابق . فأمر بعدم شراء القمح في المناطق المتعاطفة مع ثورة حسين حتى كان الناس يموتون بالمئات ثم بالألوف ثم بعشرات الألوف ، وحتى بلغ عدد الذين هلكوا جوعا في المناطق الواقعة تحت حكم جمال باشا نحو ثلاثمائة ألف نسمة . وهكذا عندما نادى حسين بثورة عربية عامة ، لم يكن السوريون في حالة تسمح لهم بالاستجابة .

ولم يكن التجريع هو العامل الوحيد الذى حال بين العرب خارج الحجاز وبين التعاون الصادق مع حسين . فإن يحيى إمام اليمن والإدريسى رغم شعورهما قد تعاهدا على تأييد الأتراك . وكان السنوسى فى برقة وقبائل دارفور فى السودان أكثر انشغالا بمقاومة الاحتلال الإيطالى والبريطانى منهم بالعمل على طرح نير الحكم العثمانى . وفى نجد كان ابن سعود ينتهج سياسة الصمود لأسباب داخلية ولحقده على حسين بسبب أطماعه فى ولاية الجزيرة العربية مما جعله مصمما على سحق مطامع هذا الهاشمى الطموح لأول فرصة . كما أن هذه المطامع ذاتها أبعدت عنه كثيرا من قادة سوريا والأردن .

كل ذلك حد من قوى الثورة العربية فى أولى مراحلها الحاسمة وأكد ظنون المتشككين فى القيادة العسكرية البريطانية فى القاهرة من أن حرب الأمير حسين عملية هزيلة لا تستحق إلا تأييدا رمزيا . كان فيصل وحده الذى كان مصمما على دحر الأتراك هو الذى ساعدت جهوده الدائبة على تدخل الشيخ عودة أبى طى زعيم الحويطات وسيد الأردن من معان إلى العقبة فى الوقت المناسب لمساندة التقدم العربى من الحجاز فى اتجاه الشمال . وجاءت نقطة التحول فى يوليو عام ١٩١٧ عندما تم الاستيلاء على العقبة بحركة التفاف بارعة قادها عودة ولورانس الذى جعلته مغامراته الفريدة كمستشار بريطانى لفيصل بطلا أسطوريا من أبطال الحرب العالمية الأولى . فقد نبهت الآن هذه المعجزة إلى أن فى الإمكان ضم العرب لتكوين قوة مقاتلة ذات قيمة حقيقية يعتمد عليها لشل حركة الأتراك شرقى نهر الأردن ، بينما يزحف الجنرال اللنبى شمالا عن طريق فلسطين .

وبفضل توصيات لورانس المتواصلة لدى اللنبي ، أصبح في الامكان الآن تزويد جيوش حسين بكل ما يحتاج اليه من مدفعية وأموال للزحف الى سوريا . وباستغلال أخبار نجاحهم في الصحراء أمكن أن يحصر الجيش المرتدون في الجبال الشمالية .

عندئذ أصبح الزحف سباقاً بين العرب وقوات الحلفاء للاستيلاء على دمشق . فقد تبدى لفيصل الآن أن البريطانيين والفرنسيين يدبرون لسلب العرب حريتهم حالما يتم طرد الأتراك ، فصمم على تأكيد حقوق والده بالاستيلاء على دمشق بجيشه هو . وقد كسب هذا السباق بعد أيام ثلاثة فقط دخل في أول أكتوبر عام ١٩١٨ عاصمة الأمويين السابقة وسط استقبال جنوني من الأهلين .

كان فيصل ورجاله يستحقون هذا الترحيب . فقد أمكنهم أن يقطعوا مسافة ألفي ميل وسط الصحاري المجدبة ويشلوا حركة الجيش الرابع التركي بين (المدينة) ودمشق ، وأن يقتلوا أو يأسروا أكثر من خمسة وثلاثين ألفاً من جنود الأتراك . كما أن حرب العصابات التي قاموا بها ضد مواصلات العدو بالسكة الحديدية مع دمشق ، حالت دون حصول الجيش التركي في فلسطين على تعزيز ضد زحف اللنبي من بيت المقدس .

وتتويجاً لهذه الجهود استسلمت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بأربعة أسابيع : في التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩١٨ — أي بعد نحو أربعمائة عام منذ أن هزم السلطان سليم الأول المماليك وأخضع الشام ومصر الى أملاكه .

القسم السابع

سراب الحرية

الفصل الرابع والعشرون :

الغدر بالعرب

لم تكن لحظة الانتصار عندما وصل العرب الى دمشق مدعاة لابتهاج لفيصل الشام . فان الشكوك التي كانت تساوره بأن بريطانيا وفرنسا تنويان المخادعة مجددا بخروج الأتراك قد أكدتها ازاحة الستار عن اتفاق سايكس - بيكو واصدار الحكومة البريطانية لتصريح بلفور .

كان هذا الاتفاق وثيقة مخزية ، اذ كشف عن انه ما كاد مكماهون ينهي مفاوضاته مع الأمير حسين حتى بدأت الحكومة البريطانية مفاوضات سرية مع الفرنسيين لتقسيم الهلال الخصيب الذي يشمل العراق وسوريا الكبرى بين بريطانيا وفرنسا . وكما أظهرت السنوات المئة الأخيرة ، فان الأوروبيين لم يتوانوا في اقتناء ما يريدون من الدولة العثمانية المنهكة . فقد انتزعت فرنسا الجزائر وتونس ومراكش . واستولت ايطاليا على ليبيا ، واحتلت روسيا أجزاء من أرمينيه . واستولت بريطانيا على مصر وقبرص وعدن ومشيخات الخليج العربي . وعندما دخلت تركيا الحرب الى جانب ألمانيا رأت الدول الكبرى المتحالفة مزيدا من الفرص للاستحواذ على الأراضي بعد ان مكنها النصر من تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية . ورغبت فرنسا في سوريا ،

وأرادت بريطانيا وحكومة الهند البريطانية الحصول على فلسطين والعراق والخليج العربي (من الكويت الى مسقط) .

وهكذا ، نجد ان كتب مكماهون رسالته الاخيرة الى حسين بستة أسابيع ، بدء السير مارك سايكس من بريطانيا ومسيو جورج بيكو من فرنسا في وضع خطة تقسيم الامبراطورية العثمانية . لتقرر أن تنال روسيا المتحالفة الآن مع بريطانيا وفرنسا الآستانة والبوسفور ، بالاضافة الى قطعة كبيرة من شرق الاناضول ؛ وأن تنال فرنسا سوريا كلها ومنطقة الموصل بالعراق وجزء من جنوب الاناضول ؛ وكولت بريطانيا باقي العراق ، أما فلسطين التي كانت كل من بريطانيا وفرنسا تدعي مطالب فيها ، فتقرر أن توضع تحت ادارة دولية لم تحدد طبيعتها .

هكذا اصطف بريطانيا بوعدها لحسين . ومما زاد الطين بلة انه لم يبلغ بشيء محدد عما دبره سايكس وبيكو ، رغم أن هذين السيدين العاملين قد زاراه في جدة بعد عام من التوقيع على الاتفاق الذي عقد بينهما .

ومهما يكن فان معاهدة كهذه لا يمكن أن تبقى طويلا على التستر والكتمان ، فان البلاشفة الذين استولوا على السلطة في روسيا عام ١٩١٧ اذاعوا شروط الاتفاق في محاولة منهم لازعاج حلفاء النظام القيصري ، وقد سارعت بريطانيا للتخلص من هذا المأزق فبعثت برسالة الى حسين من أ . ج بلفور وزير خارجية بريطانيا أكدت فيها بعبارات منمقة ان هناك لشعوبا متحدا لما تم التفاهم عليه بين الدول الكبرى ، وأن العرب يمكنهم الاطمئنان الى أن الاتفاق سوف تجرى عليه تعديلات

كبيرة لمصالحهم الآن بعد ان قاتلوا بجانب الحلفاء وقدموا لهم القوة المادية والمعنوية في حربهم ولمساعدة بريطانيا في القضاء على العدو المشترك .

ان توقيع اي وزير خارجية بريطاني على رسالة كاذبة كهذه لا يبعث على الدهشة بقدر ما يبعثه تصديق حسين لهذه التأكيدات دون ان يعثر على الاطلاق على نص اتفاق سايكس ـ بيكو . ولو انه فعل لرأى ان الوثيقة كلها كانت موجهة نحو تنمية خطط بريطانيا وفرنسا وروسيا على حساب استقلال العرب ؛ وفضلا عن ذلك فان بلفور كان يعرف ان فرنسا لن تقبل ابدا تعديل الاتفاق لصالح العرب ، بل كان يعرف يقينا ان بريطانيا ليست لديها ايه نية في التخلي عن مطالبها في العراق . واما فيما يتعلق بفلسطين ، فقبل ثلاثة اشهر فقط من ذر الرماد في عين حسين كان قد صدر في نوفمبر ١٩١٧ تصريح بلفور المشهور الذى تعهدت فيه بريطانيا بتأييد اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وان كان هدفها الحقيقي هو اقامة ادارة استعمارية وقاعدة عسكرية بريطانية في ذلك البلد . فقد كانت بريطانيا ترى انه لو قام نظام دولي في فلسطين تشترك فيه فرنسا فلن يبقى لها امنا كاملا قناة السويس ومصالح بريطانيا البحرية ، وان هذا الامر يتطلب سيطرة بريطانيا على فلسطين فضلا عن مصر .

وعندما جاء تصريح بلفور مواكبا للوقت الذى اذاع فيه البلاشفة اتفاق سايكس ـ بيكو ، فقد احدث فزعا في العالم العربي . لقد انزعج حسين انزعاجا شديدا وطلب على الفور من حليفه البريطاني تفسيرا ، وبعد مماطلات حتى اعلنت وزارة الخارجية البريطانية في يونيو ١٩١٨

ان الاراضي العربية التي حررها العرب بجهودهم ــ أي الحجاز وشرق الاردن ــ سوف يضمن لها (الاستقلال والسيادة الكاملان) ، وان المناطق التي تحررت بالمساعدة البريطانية ــ اي فلسطين والعراق ــ سوف تحكم (على اساس مبدأ موافقة المحكومين) ، وان اية اراض لا يزال يتعين تحريرها ــ اي الشام ــ (يجب ان تنال حريتها واستقلالها) . واخيرا ، في نوفمبر ١٩١٨ ، بعد استسلام تركيا ، صدر تصريح انجليزي فرنسي مشترك في فلسطين وسوريا والعراق يعلن ان سياسة الحكومتين في الاراضي العربية المحررة هي اقامة نظم للحكم (تستمد سلطتها من حرية اهاليها في ممارسة المبادرة ومن الاختيار) . وكان المقصود من هذا ان يطمئن العرب الى اتفاقية سايكس ــ بيكو من الآن الى حكم الموتة ، وان الشام والعراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية سوف تكون حرة في اختيار حكامها .

لكن العكس كان في الواقع هو الصحيح ، وكانت نية الحكومتين البريطانية والفرنسية الحقيقية هي تجزئة فلسطين والعراق وسوريا ولبنان بينهما . وقد اصبح ذلك واضحا حتى اثناء تنصيب فيصل نفسه حاكما في دمشق . اذ اقيمت حكومة مدنية وعسكرية في القدس وبغداد . وتولى الفرنسيون الحكم في لبنان وشمال شرقي سوريا . واعطي لعرب المناطق الخلفية وشرق الاردن من حلب الى العقبة . وقد احتج فيصل على هذه الترتيبات بمخالفة مثلها للتعهدات التي قطعت للعرب ، وعندما فشل في احداث اي تغيير في وقته توجه اولا الى باريس ثم الى لندن لعرض قضيته .

فلما استقبله الفرنسيون ببرود قائلين انهم

لا يستطيعون التعامل معه كممثل للعرب . وتقبل البريطانيون حججه بسبب تشويه الارتباك . واضطر ان يعود الى لندن خالي اليدين . وعندما وصل الى مؤتمر الصلح في فرساي كانت صدمات جديدة تنتظره . بعد ان استيقظ والده في النهاية على الحقيقة وعرف انه خدع . وفي ثورة غضبه رفض في البداية أن تكون له اية معاملات أخرى مع الحلفاء وحجب عن فيصل سلطته للتفاوض بالنيابة عن العرب ، واستمر الفرنسيون كذلك في رفضهم الاعتراف بالامير . ولم تتمكن الحكومة البريطانية الا بصعوبة من اقناع كليمنصو رئيس وزراء فرنسا والامير حسين بسحب اعتراضهما . بل ان الامير لم يسمح لفيصل للسعي الى حل وسط ، واصر على ان تنفذ بريطانيا عهودها كاملة .

ومع ذلك واصل فيصل جهوده وحيدا في مؤتمر فرساي . ولم يؤيده سوى الوفد الامريكي برئاسة وودرو ويلسون . ولم تكن امريكا في ذلك الوقت في مركز يجعل تأييدها على مائدة المفاوضات فعالا في شئون الشرق الأوسط ، وكانت بريطانيا تسعى وراء بترول الموصل وفلسطين ، وكانت فرنسا مصممة على أن تنال كل ما يمكنها الحصول عليه في الشام ، واذا أريد اقناع كليمنصو بالتنازل عن الموصل والموافقة على قيام انتداب بريطاني في فلسطين ، فلابد لبريطانيا من اطلاق يد فرنسا في سوريا . وكل ما استطاع فيصل ان يحققه هو اتفاق مع كليمنصو في نوفمبر ١٩١٩ يؤكد سلطة العرب في الارض الواقعة من الفتنة وحلب بما في ذلك دمشق ، وتشكيل لجنة يعتمد مؤتمر الصلح تزور الشرق الاوسط لاستشارة الاهالي المعنيين وتقديم توصيات بشأن حكومتهم المستقلة . وتقرر ان تتكون

اللجنة من ممثلين من بريطانيا وفرنسا وامريكا . ولكن انسحبت بريطانيا وفرنسا حتى لا تواجههما ترسيات من مندوبيهما قد تتعارض مع سياسة كل منهما ، واصبح المحققون فريقا امريكيا برئاسة الدكتور هنري كنج وتشارلز كرين .

وبالرغم من أن لجنـة كنج ــ كرين قامت ببحثها ولخصت توصيات كانت بمثابة شعاع من حسن الادراك في عالم سادته ظلمات التجشم والخداع ، لقد كان مصيره التجاهل لأنه أنكر مطامع المنتصرين .

وفي خلال ذلك كان فيصل قد عاد الى دمشق حيث وجد العرب يزدادون نفعا وتحمرا . فقد شكل الوطنيون (حزب الاستقلال العربي) الذي دعا الى مؤتمر قومي أصدر في مارس ١٩٢٠ قرارا يطالب بالاستقلال لسوريا الكبرى وأن يكون فيصل ملكا عليها مع رفض تصريح بلفور واتفاق سايكس ــ بيكو ورفض الوصاية والمساعدة الفرنسية بأية صورة . واعقب ذلك اجتماع الزعماء العراقيين اتخذ قرارا مماثلا بالنسبة للعراق مع اختيار عبد الله ملكا . ولقد ردت فرنسا وبريطانيا باعلان بطلان هذه الاجراءات ودعنا الى عقد اجتماع للدول المنتصرة في سان ريمو بايطاليا لتقاسم الانتدابات على سوريا وفلسطين والعراق . وقد اعترف المؤتمر بدعوى بريطانيا في فلسطين ، واضاف الوصل الى انتدابها على العراق بين كان السماح لفرنسيين بسوريا كلها بالاضافة الى لبنان .

هكذا خدع العرب ، وتحركت فرنسا فورا لتجنى مكاسبها ، فارسلت الى فيصل انذارا نهائيا تطالب فيه التسليم للدولة المنتدبة ، ثم شفعوا هذا بالزحف الى

دمشق واحتلالها ، وأمروا فيصلا بمغادرة سوريا في الصباح التالي بأول قطار .

لقد خدعت بريطانيا ، وبرهنت الآن تكل وعودها للعرب . لقد تبخرت تلك الوعود تماما ، وأصبحت مجرد فصل غصص للمسخ في ارشيف التاريخ الدبلوماسي .

لكن اذا كان الحلفاء قد اكتروا تسيار عهودهم ، فان العرب لم ينسوها . فقد شنت موجة من الثورات بين قبائل العرات في العراق بعد ان عزل الفرنسيون فيصلا بهذا الأسلوب المخاطف . وكانت الخسائر في الأرواح والأموال لقمع هذه الثورات من الجسامة بحيث اضطر الحكومة البريطانية الى اعادة النظر في سياستها . فعقد في القاهرة مؤتمر في شهر مارس ١٩٢١ ترأسه مستر ونستون تشرشل وزيرا للمستعمرات للبحث في افضل سبل لاقرار السلام في العراق . وقد اتخذ المؤتمر قرارا واحدا وفرض عليه قرارا آخر . كان القرار الأول هو دعوة فيصل للتقدم الى استفتاء شعبي لتنصيبه ملكا ، وسحب الجيش البريطاني والاعتماد على سلاح الطيران للدفاع عن البلاد وعن خطوط مواصلات بريطانيا مع الهند . أما القرار الثاني المفروض فكان الاعتراف بعبد الله اميرا على شرق الأردن . وكان عبد الله ووالده حسين قد اشتد بهما الغضب من تصرف الفرنسيين في سوريا الى حد انهما صمما على محاولة استرداد البلاد بالقوة . وفي سبيل هذا ارسل عبد الله مع جيش من ألفي رجل اتجه الى دمشق عبر شرق الأردن عندما اعترضه ضابط من ادارة فلسطين ورحب به ، وهناك استطاعوا اقناعه بالعدول عن خطته لاسترداد سوريا بمثل هذه القوة الصغيرة ، فاعلن نفسه حاكما على

شرق الأردن بينما كان مؤتمر القاهرة منعقدا ، وحينئذ قرر تشرشل ومستشاروه تحـــويل الأمر الواقع ، والاعتراف بعبد الله أميرا على شرق الأردن في ظل الانتداب البريطاني .

وهكذا خدعت بريطانيا بعض الوقت الاثنين من أبناء الأمير حسين . أما هو فلم يخف تبرمه ببريطانيا لنكثها بوعودها . ورفض حتى دعوتها اليه بعقد معاهدة تحالف . وكان عنيفا في تنديده بفيصل لتساهله وقبوله للحلول الوسط . وفي ثورة غضبه حاول بغباء أن يؤكد سلطة لم يكن يملكها . فقد استغل سقوط الخلافة العثمانية ونادى بنفسه خليفة للإسلام .

وبهذه الخطوة لم يستفز فقط غضب جاره المعادي له وهو ابن سعود الذي كان ينقم عليه محالفاته للحلفاء (الكفار) بل انه ذهب خطوة أبعد بمحالفة ابن الرشيد العدو التقليدي لابن سعود . كما ساعد في تمويل ثورة قبائل الفرات ضد الاحتلال البريطاني .

وهكذا كان الأمير حسين قد نجح بحلول عام ١٩٢٤ في مجافاة ابنه وجيرانه وأخيرا الحكومة البريطانية التي كانت وحدها قادرة على حمايته ضد تهديدات الوهابيين .

ولم يلبث أن أطبقت عليه هذه النتائج عندما زحف رجال ابن سعود الوهابيون على الحجاز في أغسطس عام ١٩٢٤ . وعندما احتلوا الطائف ونشروا الذعر في كل أنحاء الحجاز بأن جميع سكان البلدة قد ذبحوا ، لجأ حسين أخيرا الى بريطانيا يطلب المساعدة ، بيد أن الحكومة البريطانية اختـــارت الآن أن تعتبر الصراع كمسألة دينية لا تعنيها .

واخيرا تنازل حسين لصالح ابنه الأكبر علي : الذي حال احتلال صحته دون قيامه بدور نشط في الثورة العربية ، كان الرجل العجوز يؤمل ان يستطيع بالتضحية بنفسه وقف الزحف من سفك الدماء ، ويحمل ابن سعود على التفاوض من اجل التسوية . ولكن الوهابيين واصلوا زحفهم بلا ترفق ، فاستولوا على مكة في اكتوبر عام ١٩٢٤ ، وبعد حصار طويل طردوا باخر معقل للهاشميين وهو جدة في ديسمبر ١٩٢٥ ، وقد سلم علي البلاد لابن سعود وذهب ليعيش في المنفى في احدى قصور اخيه فيصل في العراق . وقصد حسين الى قبرص حيث قلده وسام فارس الصليب الأكبر ، حاكمها رونالد ستورس ، ذلك الرجل الذي كان حسين قد تفاوض معه بشأن الخطاب الأولى ومحالفته الاكيدة مع بريطانيا ، وبدا انه من غير بعيد عن مرتبه من الحرية والاستقلال اللذين خال ذات مرة انه ظفر بهما للعرب !

الفصل الخامس والعشرون :

ابـــن ســـعـــود
ســـ ـ ياسي الصحراء

يمكن ولا شك ان يعد الرجل الذي تغلب على خصوم امرمكة في النهاية ـ وهو عبد العزيز بن سعود ـ واحداً من آخر الأمراء الالطاميين العظـــام في شبه الجزيرة العربية ، فقد قدر لهذا الأمير الا يتمتع بالحجار حسب ، بل وان يكون كذلك مبعث الهام وتوجيه الثورة وصلبة اجيال والعتين على مدار التاريخ .

بدأ ابن سعود حياته بين قوم خلفتهم الحضـــارة ورائها ، وكانت الأملاك التي ورثها عن أســـلافه أرضاً مباحة تقع بين شمالي بلاد العرب وجنوبها ! حيث كان الصراع من أجل البقاء ضد عناصر الطبيعة من القسوة بحيث تركها الغزاة الأجانب دون أن يمسوها باحتلال . كانت اول جيوش الاسلام بقيـــادة خالد بن الوليد قد اجتازتها لارغام عمان وحضرموت واليمن على الاستسلام، وأجتازتها الرابطة لكي ينصروا مكة . وكانت قفار نجد تعود بعد كل صوب الى حواتهـــا المطلق . وكان البدو الرحل الـــ بعو الحركة هم وحـــدهم اللذين استطاعوا الوجود الصمود في قيامها الموحشة القاتلة . ولكن ابن سعود استطاع رغم اصوله البدائية ان يشكل اول دولة عصرية من القبـــائل الرحل وأن يصبح مع الزمن قـــوة يحسب حسابها في بقعة بلاد العرب من جديد .

ولد ابن سعود في نوفمبر عام ١٨٨٠ من نسل محمد بن سعود وسمية عبد العزيز بن سعود الكبير ناصر عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي المتشدد المتعصب بالدين والذي اطلق اسمه على رجال القبائل المعادين الاشداء الذين حكمهم البيت السعودي . ولقد أمضى ابن سعود فترة صباه مع ابيه الامير عبد الرحمن في الكويت لاجئين اذ كان السعوديون واتباعهم الوهابيون قد طردوا من الحجاز على ايدي جيوش محمد علي المصرية في عام ١٨١٨ ، واستولت قبيلة شمر الكبيرة بزعامة محمد بن الرشيد حمير الحائل المتحالفة في شمال شبه الجزيرة العربية على موطن السعوديين في نجد ثم في الرياض . وظل ابن سعود وهو يتقدم في مدارج الشباب تحت حماية شيخ الكويت تستبد به رغبة مضطرمة في الثأر لما لحق بالأسرة من هزائم وطرد ، واسترداد ممتلكاتهم في نجد . ولقد استطاع في فبراير عام ١٩٠٢ بمساعدة شيخ الكويت تجهيز قوة تضم مائتين من راكبي الابل مباغتة الرشيديين في الرياض وهزمتهم والاستيلاء عليها .

وبعد أن كسب ابن سعود هذه الجولة الأولى نادي به أبوه أميرا على نجد وإماما للوهابيين . وبانضمام الافواج الكبيرة من البدو اليه ، تهيأ له تطهير الجزء الاكبر من نجد من اتباع ابن الرشيد . وفي ابريل عام ١٩٠٦ أمكنه في هجوم مفاجىء على معسكر الرشيديين قتل ابن الرشيد ذاته ، واستسلم اتباعه للوهابيين .

اصبح ابن سعود الآن المسيطر على نجد بكاملها . وفي مستهل عام ١٩١٤ خاض معركة مع قبائل العجمان على الخليج العربي وكانت تناوئه بالهجمات المتوالية بتحريض من الاتراك ، ولقد استطاع مع قوة من ستمائة

وعاين مرابطة الحامية التركية في عاصمة الحسا ، وتم توطيد الهدوء بين القبائل - ولهذا لابن سعود ان يسيطر على ساحل الخليج العربي من الكويت الى البحرين ، بل ان الباب العالي ، تجاوز الآن عن هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية ! ولم يعد ابن سعود يتعرض لمضايقات من جانب الأتراك .

بيد ان نجاح ابن سعود على هذه الصورة ما لبث ان اثار اهتمام قوة عالمية أخرى هي بريطانيا العظمى ، التي كانت سياستها حتى الآن قائمة على مد مجال نفوذها حتى الخليج العربي لمواجهة السياسة الالمانية الزاحفة نحو الشرق ، وبعد امتداد الأرض السعودية حتى شواطئ الخليج العربي حول البحرين والتحالف مع الكويت ، بات الأمير سعود يمكن ان يكون صديقا نافعا أو عدوا منغصا ، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى وأصبحت تركيا العدو الحقيقي ، سعت بريطانيا الى عقد معاهدة تحالف مع ابن سعود للحصول على مساعدته ضد الأتراك ، ولكن الأمير الحذر لم يقبل اي تورط ، وكل ما وافق عليه هو التزام الحياد مقابل اعتراف بريطانيا به حاكما على نجد والحسا مع الدفاع عنه ضد أي هجوم تركي ، وتزويده بالبنادق والمال .

ولم يلبث ابن سعود بعد انتهاء الحرب وزوال التهديد التركي أن استأنف حروبه الخاصة، فاستولى في الجنوب على عسير الواقعة بين الحجاز واليمن ، وفي عام ١٩٢١ استولى على حائل عاصمة الرشيديين ووضع نهاية لهم . وفي السنة التالية استولى على الجوف ووادي سرحان وهي مناطق قبائل نوري شعلان أحد امراء بلاد العرب العظام الاربعة . بل انه حاول غزو شرق الأردن ،

لولا ان هزمه السلاح الجوي البريطاني .

وهكذا ما ان حل عام ١٩٢٤ حتى كان ابن سعود قد وطد لنفسه شبه جزيرة حدود نجد . ولكن موارده لم ترد بازدياد مطامعه وتوسعه . فالى جانب اعانة من بريطانيا مقدارها ستون الف جنيه ، لم تكن ايراداته السنوية تتجاوز مئة وخمسين الف جنيه ، وكان حتما وهو يدير النظر حواليه بحثا عن نبع جديد تدر له ماليته القبلية ان يرنو ببصره الى الحجاز لكي تفيد من موارد الحج بعد انتهاء الحرب وفتح الطريق الى مكة من جديد .

وقد جاءت الفرصة التي كان ينشدها ابن سعود للاستيلاء على الحجاز عندما نادى حسين امير مكة نفسه خليفة في فبراير عام ١٩٢٤ . فهجم . وما ان جاء سبتمبر حتى سقطت الطائف . وفي السنة التالية سقطت : المدينة وجدة . وفي ٨ يناير نودي بابن سعود ملكا على الحجاز وسلطانا لنجد ، وبعد ست سنوات في سبتمبر ١٩٣٢ ـ اصبح اتحاد نجد والحجاز والحسا المملكة العربية السعودية ، يحكمها ابن سعود حكما وراثيا .

وفي حين ان فتح الحجاز وضمان ايرادات الحج قد حل بعض المشكلات ، فانه اوجد ايضا مشكلات اخرى بعد ان اصبح السعوديون على اتصال وثيق ، بل وعلى خلاف مع الدول الاسلامية الاخرى ومع القوى الاوروبية التي تشرف على مستعمرات مجاورة للسعودية . ومن اجل هذا دعا ابن سعود الى مؤتمر من الدول الاسلامية في يونيو ١٩٢٦ لمناقشة الجوانب الاسلامية في ادارة الحجاز . وكان المؤتمر ناجحا من حيث انه مكنه بأقل الاحتكاك من العمل تدريجيا على تعديل بعض القواعد

المتشددة في المذهب الوهابي ، وأقناع أهل نجد بقبول بعض المستحدثات العلمية الضرورية للحياة والإدارة الحكومية كالتليفونات والسيارات والراديو ، وكان المتزمتون يصدونها بمخربات الشيطان . ورغم ذلك فقد أخفق ابن سعود في ثني مستشاريه عن اللوم خلافه مع مصر أدى الى قطيعة بين البلدين حتى عشر سنوات ؛ وكان السبب هو استيلاء الوهابيين على كسوة الكعبة التى أعدتها مصر ارسالها الى مكة في مواسم الحج باعتبارها بالغة الزخرف .

ولكن علاقاته مع بريطانيا استمرت في الازدهار . فقد ارتاحت الحكومة البريطانية في قرارة نفسها لأن ابن سعود قد خلصها باستيلائه على الحجاز من الأمير حسين الذى كان وجوده في الحكم يذكر الناس بخيانتها وغدرها بالعرب . وهكذا بادرت الى الاعتراف بابن سعود ملكا على الحجاز في اتفاقية جدة التى عقدت في مايو ١٩٢٧ ، بل انها لم تنتظر احتجاجه وأمسكت عن أن تطلب منه في هذه الاتفاقية تأييد تصريح بلفور أو الانتداب البريطاني على فلسطين .

ومن هذه البداية في الاتصال الدولي مضى ابن سعود يعقد المعاهدات ويتبادل التمثيل السياسي مع لوزنسا وروسيا وهولندا وايطاليا وتركيا وايران ، ولكنه حرص على ابقاء كل البعثات الأجنبية في جدة البعيدة بقسوة تمانمائة ميل عن عاصمته في الرياض ، اعتقادا منه أن الدبلوماسية والحكم يجب ممارستهما في أماكن مختلفة تماما ، ايثارا للعزلة والتكتم ، وسترا للقصور في أداة الادارية .

وفي عام ١٩٣٠ واجهت بلاده الاولى نتيجة الكساد

الاقتصادي الخانق الذي تمثل في حدوث نقص خطير في عدد الحجاج المسلمين الذين يمكنهم القيام بالرحلة الى مكة . لقد خوت الخزانة من المال ، واعلنت الحكومة وقف اسعاد الدين الاهلي ومرتبات الموظفين ، وما كان يمكن انقاذ البلاد الا بمعجزة . ومع ذلك فقد جاءت هذه المعجزة في خلال عام .

فقد استضاف ابن سعود دبلوماسيا امريكيا كبيرا واكرم وفادته حتى اتحفه بجوادين عربيين أصيلين . وردا من الضيف الامريكي على هذه الحفاوة ارسل اليه على نفقته الخاصة مهندس تعدين للقيام ببحث عن الموارد المعدنية المحتملة في مملكة ابن سعود .

كانت النتيجة اكتشاف البترول في الشرق ، وكمية محدودة من الذهب في الغرب ، وسرعان ما تسابقت شركات البترول العالمية تطلب امتياز الحفر في العقيران القريبة من ساحل الاحسا . وفي عام ١٩٣٣ حصلت شركة ستاندارد اويل اف كاليفورنيا على امتياز مقابل خمسين الف جنيه ، وبعد ست سنوات تم انتاج البترول بكميات تجارية . وفي عام ١٩٥١ كانت الخزانة السعودية تحصل على ايراد يومي يجاوز ما كانت تناله في سنة كاملة في الوقت الذي تمت فيه زيارة الضيف الأمريكي بمحض الصدفة ، وقد أدت هذه الثروة الطبيعية الى انشاء خط حديدي تكلف ثلاثين مليون دولار ، وبناء عدة قصور جديدة ومحطة للاذاعة ، وطرق رئيسية جديدة ، ومحطة لتوليد الكهرباء في اربع مدن ، وانابيب مياه عذبة لتزويد جدة ، وخط طيران ، واعادة فتح مناجم الذهب (مناجم الملك سليمان) القريبة من (المدينة) . ونظرا لأن مثل هذا التطور كان يتطلب مهارات

مبررة في العربية السعودية ، فقد فتح الباب على مصراعيه الآن ، وتقاطر الأطباء والمدرسون والفنيون والاداريون من مصر وسوريا ولبنان وفلسطين الى الدولة التي تشهد هذا الازدهار الجديد .

ولقد حرص ابن سعود طوال الصراع بين بريطانيا والعرب واليهود في فلسطين ، وبين فرنسا والعرب في سوريا ولبنان ، على التزام الحياد الدقيق ، فتمسك بالصمت بقبول الانتداب البريطاني على فلسطين ، لا لأنه كان يميل اليه ، بل لأنه لم يكن يؤثر على حدوده ، بل ان ابن سعود لم يتحرك حتى عندما أعلن الصهيونيون جهاراً ان هدفهم هو دولة قومية يهودية في فلسطين ، وعندما تزايدت هجرة اليهود من اوروبا بعد ان ربع ملك السعوديين اصبعا لإزارة اخوانه العرب في مطالبهم من أجل الاحتفاظ بأرضهم ، وبعد ان ظهرت دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ ، وحاول جيرانها العرب سحقها في المهد ، لم يقدم سوى تأييد رمزي لجهودهم ، معتبراً حملتهم لا شيء لرقيتها ولم يتخذ لها ما يلزم من الاستعداد والتنسيق .

كان ابن سعود خلال حكمه الطويل يشعر بالنفور والكراهية للتورط الخارجي ، فلم يسافر قط خارج الشرق الاوسط ، وقلما غادر بلاده ذاتها ، ومرة زار القاهرة زيارة رسمية بعد زوال القطيعة التي حدثت بسبب كسوة الكعبة ، حيث استقبل بحفاوة كبرى ، ولكنه واصل بعدها سياسة الاعتزال . وكان ينظر بعين الريبة الى جيرانه ولا سيما الهاشميين — فيصل في العراق وعبد الله في شرق الأردن . وعلى الرغم من ان البريطانيين كانوا يتملقونه في كل معاملاتهم ، الا انه كان

دائم الشك في نواياهم ، خصوصا لأنهم أيدوا أولا حسينا في الحجاز ثم عبد الله في شرق الأردن ؛ وقاموا بالاعتداء على الكويت والبحرين وغيرهما من مشيخات الخليج العربي على امتداد حدوده . ومن ثم كان الحياد وعدم التورط عما في تفكيره السياسة الوحيدة المأمونة العواقب .

ومهما يكن من أمر ابن سعود الذي حكم مملكته مدى نصف قرن ؛ فقد استطاع أن ينشيء دولة حديثة وموحدة من قبائل متنافسة متخلفة من العصور الوسطى ، وأن يقودها نحو القرن العشرين بعزم لا ينثني .

الفصل السادس والعشرون :

المأساة في فلسطين

ان الكلام يقصر عن وصف مأساة فلسطين في ربع القرن الممتد بين قيام الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الاولى وخلق دولة اسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية ؛ بل عن وصف موقف سلطة الانتداب البريطانية او الحركة الصهيونية تجاه عرب فلسطين ؛ او عن رفض العرب المتواصل لاي اتفاق او تسوية تتحدى حقوقهم او تنتقص من الوفاء التام بالتعهدات التي قطعتها بريطانيا خلال الحرب بشأن حرية العرب . اما انهم كانوا ضحايا الغدر والظلم شيء لا يمكن انكاره ، ولكن نظرا لانهم لم يستطيعوا تبيان هذا الغدر بهم ؛ كما ان الصهاينة لم يتخلوا عن اطماعهم ؛ فقد منيت فلسطين بنكبة لا مثيل قبلها .

والواقع انه لم يكد يصدر تصريح بلفور حتى نشط الصهيونيون للعمل . ففي مارس ١٩١٨ وصلت الى فلسطين لجنة ثلاثية من الدكتور وايزمان وسير روتشيلد وميجر سيف لتكون — في الظاهر — حلقة اتصال بين اليهود والحكومة العسكرية البريطانية . في هذه المرحلة كان سكان فلسطين اليهود حوالي ٥٥ الفا ، اي اقل من ٨ في المائة من سكانها البالغ عددهم سبعمائة

الف . اما النسبة الباقية وهي ٦٦ في المائة فكانوا من العرب ، اربعة اخماسهم مسلمون والباقون مسيحيون . وازاء هذا التفوق العددي ، وباستمالة لبعض قادة العرب مثل الامير حسين الى الوعود البريطانية بأن الهجرة اليهودية لن تعتدي على حريتهم السياسية والاقتصادية — فان عرب فلسطين لم يبدوا أي اعتراض على هذا الوجود الصهيوني بينهم . بل ان الأمير فيصل وقع اتفاقا مع الدكتور وايزمان في يناير عام ١٩١٩ — اعرابا عن حسن نيته — نص فيه انه بشرط صيانة حقوق الفلاحين والمستأجرين العرب « فسوف تتخذ جميع الاجراءات اللازمة لتشجيع وتنشيط الهجرة اليهودية الى فلسطين على نطاق واسع وبأسرع ما يمكن لتوطين المهاجرين اليهود فيها » .

ثم جاء مؤتمر الصلح ومعه تحطيم سياسة فيصل في سوريا . ولكن ، على الرغم من انه قد اتضح الآن ان العرب في سوريا سوف يخضعون الى الفرنسيين ، فلم يقم وفد عربي بزيارة لندن لاستطلاع خطط الحكومة البريطانية بشأن فلسطين الا في عام ١٩٢٠ . وقد اقترن هذا بقيام السلطات البريطانية في القدس بطرد الوطنيين العرب واحلال اليهود محلهم . ثم أعلن مؤتمر صهيوني في لاهاي ان هدف الصهيونية ليس انشاء (وطن قومي) لليهود ، ولكن انشاء (دولة يهودية) . وفوق هذا كله وافقت بريطانيا وفرنسا في سان ريمو على وضع فلسطين تحت انتداب بريطاني يحمل معه الالتزام بتنفيذ وعد بلفور . وعندما أذيع المشار من شروط الانتداب أظهرت اغفالا تاما الأغلبية العربية في فلسطين والبالغة ٩٢ في المائة ، بينما أشارت فيما لا يقل عن أربع عشرة مرة الى اليهود او المؤسسة اليهودية . بل ان بريطانيا

وضعت دستورا اعطى سلطة مطلقة للمندوب السامي البريطاني للاعتراض على أي اجراء يصدره المجلس التشريعي . وعندما عرف هذا قاطع العرب انتخابات عام ١٩٢٢ ، واصبح ما يدعى بالمجلس التشريعي في حبر كان ، وهكذا تركت سلطة غير محدودة في أيدي سلطات الانتداب مع مجلس استشاري من البريطانيين مئة في المئة ؛ كانت وظيفته تأييد كل قراراته .

ومع ذلك ؛ وبالرغم من كل هذه الضربات ، فقد ظل السكان العرب مطمئنين الى المسألة نسبيا خلال السنوات الخمس الاولى للانتداب البريطاني .

ومن المفارقات العربية ان بريطانيا اختارت يهوديا ليكون أول مندوب سام في فلسطين هو السير هربرت صموئيل . وعلى الرغم من انه كان صهيونيا متحمسا للصهيونية فانه لم يظهر اي تحيز للصهاينة والتزم جانب الانصاف في معاملاته مع العرب . وقد ساعده عدم تحيزه شخصيات عربية مثل راغب النشاشيبي عمدة القدس الذي كان وطنيا معتدلا على السيطرة على الموقف ومنع المتطرفين من ان يفلت زمامهم خلال تلك الايام المبكرة .

ولكن اختيار صموئيل للحاج أمين الحسيني مفتيا للقدس لم يكن منسجما مع هذه السياسة ؛ وقد أدى فيما بعد الى ان يسحب المتطرفون البساط من تحت اقدام المعتدلين .

كانت هناك منافسات مريرة بين اسرتي النشاشيبي والمفتي ، وقد ادت زعامة المفتي على الجمعية الاسلامية الى وضعه في موقف اقوى من عمدة القدس ، وهكذا فبينما تزايدت ضغوط الهجرة اليهودية الى حد

لا يستطيع العرب احتماله ، فقد لجأوا الى الزعيم الذي كان يبدي شغفه باستخدام العنف ، وتحولوا عن الرجل الذي كان يؤثر سياسة التفاهم والتأني .

وبحلول عام ١٩٢٨ كان الوضع قد تدهور بسرعة . فعلى الرغم من ان العراق نال استقلاله ، وتمتع شرق الاردن بالحكم الذاتي داخليا ، كانت فلسطين لا تزال تعامل معاملة المستعمرات المتخلفة ، وعندما طلب العرب ، بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب ، بان تعترف بريطانيا لفلسطين بالحق في الحكم الذاتي الديمقراطي طبقا لتصريحات الحلفاء في يونيو ونوفمبر ١٩١٨ ، نودوا بالرفض على الفور .

وكان للعرب مصدر قلق آخر هو بيع اراضيهم . فقد كانت نسبة كبيرة من الارض في فلسطين مملوكة لملاك اراضي لبنانيين ، ما لبث الكثيرون منهم ان باعوها للمشترين اليهود . وهكذا لم تصبح ملكية العرب الارض مهددة فقط ، ولكن كان المستأجرون وعمال الزراعة العرب يطردون طردا لاخلاء مكانهم للمستوطنين اليهود . بل انه في بعض المناطق ازيلت قرى بكاملها لتحل مستعمرات يهودية مكانها .

وعندما تزايدت طوابير العرب المطرودين من ديارهم واعمالهم اقتربت المشاعر من درجة الغليان . ثم ان سياسة التحيز الصارخ التي انتهجتها بريطانيا برفض مطالب العرب في الحكم الذاتي والسماح في نفس الوقت للوكالة اليهودية في فلسطين بان تتطور الى شبه حكومة موازية في دور التكوين ، قد جعلت العرب يشعرون بان هذه التفرقة المتحيزة جاوزت كل حد ، ومن ثم دفعت الكثير منهم الى الاضراب . وفي اغسطس ١٩٢٩

اجتاحت القدس اضطرابات خطيرة ، وامتدت الى حبرون وصفد في الجليل الشمالي .

لجأت الحكومة البريطانية لتحويل غضب العرب الى ارسال لجنة لتحقيق في مظالم . وقدمت اللجنة عدة توصيات معقولة تقضي بتشديد الرقابة على الهجرة اليهودية ، فمنذ عام ١٩٢٠ استوطن مئة ألف مهاجر يهودي فلسطين ، وربما يتعلق بحماية المستأجرين والعمال العرب قبلت الحكومة البريطانية النتائج التي تقدمت بها اللجنة . ولكن الصهاينة اثاروا عاصفة من الاحتجاج العنيف حتى اضطر مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية الى الكتابة للدكتور وايزمان بنفسه بان حكومته لم تكن تعني شيئا مما قالته .

وفي عام ١٩٣١ كانت نسبة اليهود من السكان قد تضاعفت حتى وصلت الى ١٧ في المائة . وبلغ عدد المستوطنين اليهود مئة وسبعين الفا . ولقد تمادت الوكالة اليهودية بعد أن تزايدت قوتها الى حد انه اذا حاولت سلطة الانتداب أن يكون لها سيطرة في مسائل الهجرة والاستيطان تعالى صراخ الوكالة ووجد صراخها صداه في صحافة الولايات المتحدة واوروبا الغربية وروسيا السوفييتية ، وكثيرا ما تراجعت السلطات البريطانية وسمحت للصهاينة بالتصرف كما يشتهون خوفا من اتهامها بمعاداة السامية .

وبحلول عام ١٩٣٢ ووصول هتلر الى الحكم في المانيا تضاعف معدل الهجرة اليهودية الى ثلاثة امثاله ، اي من عشرة الاف الى ثلاثين الفا في السنة . ثم ارتفع في السنة التالية الى ٤٢ الفا . وفي عام ١٩٥٢ وصل الى رقم قياسي هو ٦٢ الفا ، وبعد ان تضخمت نسبة اليهود

إلى مجموع السكان على هذه الصورة حتى بلغت ٣٠ في المائة ؛ بعثت الدولة المنتدبة تقول إنه لابد من عمل شيء لمجابهة السكان العرب . فأعلنت الحكومة البريطانية عن نيتها في إنشاء مجلس تشريعي مزود بسلطات حقيقية على أساس التمثيل النسبي . ورغم أن عرب فلسطين قابلوا هذا الاقتراح بالترحيب ، إلا أنه قوبل بالرفض من جانب المفتي وأقلية من المتطرفين . كما استنكره الصهاينة الذين رأوا فيه تهديدا لهدفهم في إنشاء دولة يهودية . وبمرور الوقت وضع الاقتراح على الرف ، واعتبر العرب أنهم خدعوا مرة أخرى .

كانت هذه هي فرصة الحاج أمين الحسيني الكبرى ، وقد أمسك بها بكلتا يديه . ومنذ ذلك الحين فقد النشاشيبي كل سيطرة ، وأصبح الاعتدال مرادفا للخيانة ، وتولى المفتي زمام الموقف . ففي عام ١٩٣٦ أسست منظمة تدعى اللجنة العربية العليا لتوجيه ثورة عربية مسلحة ، وانتخب المفتي رئيسا لها . وفي اجتماع حضره ممثلون لسوريا والعراق وشاركت فيه الجمعيات الوطنية لعرب الشاطئ من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي ، دعا المفتي إلى إضراب عام في كل أنحاء فلسطين . وقد أبلغ السلطات البريطانية أن الإضراب سوف يستمر إلى أن توافق بريطانيا على وقف الهجرة اليهودية كلية . واقترن هذا ببدء حملة من التخريب ضد المواصلات العسكرية وأسلاك التليفون والطرق والسكك الحديدية .

مرة أخرى قررت الحكومة البريطانية نزع سلاح العرب بالخدع الدبلوماسية ، فأعلنت عن تشكيل لجنة ملكية للتحقيق في الموقف الفلسطيني .

ولكن اللجنة العربية العليا بقيادة المفتي ، قاطعت مقابلتها للجنة عند وصولها . ولقد اعتبر الكثيرون أن حرمان العرب على هذه الصورة المتعمدة من الدفاع عن قضيتهم أمام لجنة التحقيق هو أسلوب ينم عن الحماقة . وعلى الرغم من أن اللجنة العربية العليا أذعنت أخيرا بعد ضغوط جدية من جانب الزعماء العرب في الخارج ، فقد جاء ذلك بعد فوات الاوان ، اذ لم تستمع لجنة التحقيق الا الى شهود معدودين من العرب بالقياس الى كثرة كبيرة من الشهود اليهود والبريطانيين قبل أن تغادر البلاد في يناير ١٩٣٧ لاعداد تقريرها . وقد رفضت اللجنة مطالب العرب بشأن مؤسسات للحكم الذاتي ، ودعت الى تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . وكان المشروع الذي اقترحته يعطي ٦٠ في المائة من المساحة القابلة للزراعة الى اليهود الذين يمثلون ٣٠ في المائة من مجموع السكان ، بينما يترك للعرب الاراضي الباقية ، مع وضع القدس وبيت لحم والناصرة تحت انتداب بريطاني دائم .

وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه التوصيات ، بل وباركتها عصبة الأمم ، كما أن عبد الله أمير شرق الأردن نصح عرب فلسطين بقبول التقسيم ، وان كان له هدف آخر هو الحصول لنفسه على أي جزء من فلسطين ، بعد أن رفض اقتراحه في مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ بضم جميع فلسطين الى شرق الأردن .

والواقع أن نفس هذا التهديد باستيلاء شرق الأردن على فلسطين كان من الأسباب التي دفعت العرب الى رفض مشروع ... اليهود . ثم ان الظلم الصارخ للتقسيم ... الاضافة الى الاهانة المتمثلة في عدم

انطاه حراسة الأماكن المقـــدسة لشعب حافظ على تراثها طوال ثلاثة عشر قرنا ــ كل ذلك كان أكثر مما يحتمله العرب .

انفجر العنف مرة أخرى في فلسطين ١٩٣٧ حينما أعلن المفتى الحرب على البريطانيين واليهـــود وهدد بالموت كل عربي يقصر في أدائه ومقـــاومة مشروعات التقسيم . ومرة أخرى بدأ أن السلطات البريطانية أحلت على غرة . ولكن في سبتمبر عام ١٩٣٧ عندما اغتيل المندوب البريطاني في منطقة الجليل ذات تخطيط موقف التشدد ، فجيء بالتحصينات إلى فلسطين ، وتقرر الحكم بالإعدام على كل من يحمل أسلحة واعتبرت اللجنة العربية العليا خارجة على القـــانون وفتشت مكاتبها وقبض على أربعة من زعمائها البارزين ونفوا إلى جزيرة سيشل . وفر المفتى إلى بيروت حيث منحته السلطات الفرنسية حق اللجوء .

والحق بالرغم من غياب زعيم العرب ومداهمة العسكر في صفوفهم ، إذ زادوا فيما بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ على ألف قتيل بالمقارنة إلى ٨٢ يهوديا ــ فقد واصلوا القتـــال بحرارة متزايدة . وقد شجعتهم أصوات المؤتمرات العربية في أنحاء الشرق الأوسط وتأييد المؤتمر الإسلامي لعموم الهند وتحريض أتباع المفتى : فتمكنوا من السيطرة على معظم الريف والأشغال المواصـــلات الحديدية ، وهوجمت المستعمرات اليهودية : وبدا كأن مصيرها الزوال من الوجود . وكانت الدوريات البريطانية التي تتجاسر على الابتعاد عن نطاق المدن الرئيسية تقع في الكمائن ويقتل أفرادها . وأي عربي يبدون من متحمسي للتضحية كانوا يقتلون بأيدي المسلحين من رجال

الفني . وكان الاعضاء معين اثنى عشر من اتهمه لأخذهم بافكار نزاله النشاشيبي المعتدله .

وبعد ثمانيه عشر شــــــهراً من ادانة البعثة أرسلت بريطانيا لجنــــة أخرى للتوصيه بحل ، فعجل لسخطه الانتداب صراحه ان الشروط اوجــــــدة اسي حكن فيها لوقف اطلاق النار هي وقف الهجرة اليهوديه تماما وانشــــاء حكومة عربية منتخبة . وقد قابلت الوكالة اليهودية بالرفض أى نقص الهجرة أو أية حكومة لمقابلة العرب . كما بدأت في تنظيم فرق يهوديه لمقاتلة الثوار العرب ، وهي التي كانت فيما بعد نواة لعصابات شتيرن وارجون زفاي ليومي التي انقلب بها اليهود على الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الثانيه . وفي نفس الوقت بدأت عمليات تهريب المهاجرين بطرق غير مشروعة حتى نجحوا فيما بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣٩ في ادخال ٢٥ الف مهاجر الى فلسطين بلا تراخيص .

وعلى الرغم من ان العرب كانوا حتى عام ١٩٣٩ يعانون خسائر في الارواح اكثر من اعدائهم ، اذ تلقت خسائر العرب حتى الآن ٣٦٠٠ مقابل ٢٥٠ من اليهود و ٧٧ من البريطانيين ـ فقد استمرت الثورة دون توقف ، وظل الريف تحت سيطرة الثوار الى حد كبير ، وقد واجهت بريطانيا ازمه خطيرة : فان سحب الحرب كانت تتجمع ثانيه فوق اوروبا عندما كانع هتلر انتصاره في ميونيخ بالاستيلاء على براغ . وبما ان ما خططت له بريطانيا ليكون مركزا اساسيا للدفاع في قناة السويس قد اصبح الآن يستنزف مواردها العسكرية الضئيلة بصورة خطيرة ، فكان لابد من عمل لتحقيق تسوية في فلسطين .

وهكذا دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر في

لندن في أوائل عام ١٩٣٩ يمثل فيه عرب فلسطين والوكالة اليهودية والدول العربية ، وفي هذا المؤتمر أصر العرب على فلسطين حرة مستقلة مع منح حقوق الأقلية لسكان اليهود الموجودين بها ، وأبدى اليهود أنهم لن يأخذوا أي اقتراح يهدد حق دولة يهودية في فلسطين . فقد كانت عشرات اللاجئين من الجنسيات من الألمان اليهود ، تدفعت لشراء الأرض من أجل هذا الغرض ، وارتفع عدد القرى والمستوطنات اليهودية إلى أكثر من ٢٥٠ ، وأصبحت نسبة اليهود إلى العرب ١ : ٢ بعد أن كانت ١ : ١٢ في عام ١٩٢٠ ، وزاد عدد اليهود إلى مليون ، وعملت الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية تطالبان بالمساواة العددية على الأقل .

وهكذا أعلنت الحكومة البريطانية في مايو ١٩٣٩ الحل الذي تراه في كتاب أبيض اعترف فيه بحق العرب في الحكم المستقل وفي الحماية من تأثير الهجرة وشراء الأراضي . واعترافا من الحكومة البريطانية بأن سياستها لم تكن مبررة للأسباب ، فقد كتبت الآن أن تكوين دولة يهودية في فلسطين هو إنكار لعهود بريطانيا للعرب ، وقد نص الحل على فترة انتقال قدرها عشر سنوات تصبح بعدها فلسطين دولة مستقلة لنائبة القومية ، يشترك فيها العرب واليهود في الحكومة ، مع السماح بدخول ٧٥ ألف يهودي خلال السنوات الخمس التالية ، لكون بعدها أية هجرة جديدة بالاتفاق مع العرب ، ويمنح المندوب السامي البريطاني سلطة منع شراء اليهود للأرض في مناطق معينة .

كانت هذه مكاسب للعرب ، فلأول مرة منذ عشرين عاما بدا أن الحكومة البريطانية أدركت أن الأغلبية

العربية في فلسطين لها قضية ، ولو ان طرفي النزاع قبلا هذه السياسة ووافقا على التعاون واقامة دولة ثنائية القوميتين ، لما نجب العالم نقط ما اصبح خلق دولة اسرائيل من مرارة وسفك للدماء ، بل ان كيان فلسطين الذي كان من اكثر المجتمعات تقدما وتعليما في المنطقة كان يتهيأ له المجال ليصبح مصدرا للقوة والوحدة في ارجاء الشرق الأوسط كله .

وعلى اي حال فقد رفض كل من العرب واليهود سياسة الكتاب الأبيض رفضا باتا ، ولم يبق من سبيل لتنفيذ حل الدولة ذات القوميتين الا ان تفرضه بريطانيا على الجانبين .

ولكن هذا الاتجاه نفذ بنشوب الحرب العالمية الثانية وتوجيه اهتمام بريطانيا الى نواح اخرى . وهكذا ازيحت جانبا سياسة الكتاب الابيض واصبحت فلسطين قاعدة عسكرية للمجهود الحربي البريطاني في الشرق الاوسط .

وبانتهاء الحرب ضاعف الصهاينة جهودهم للسيطرة على فلسطين وكسب التأييد الدولي لقضيتهم . ولقد اعطاهم هتلر ورقة رابحة في عمليات التعذيب والقتل التي تعرض لها اليهود في المانيا النازية والاراضي المحتلة في اوروبا . فقد استخدم اليهود هذا لمهاجمة السلطات البريطانية في فلسطين بسبب رفضها الهجرة اليهودية غير المحدودة ، وتمادى اليهود في هذا الى حد ان قواتهم السرية قامت بحملة من العنف فاقت الثورة العربية في اعوام ١٩٣٦ — ١٩٣٩ .

وبحلول عام ١٩٤٧ ايقنت بريطانيا من فشل سياستها في فلسطين بعد حكم دام سبعة وعشرين عاما كانت

تتبجنه اضعافها ادبيا وعسكريا ، فتخلت من الكتاب الأبيض ، وابلغت الأمم المتحدة بوصفها خلفه لعصبة الأمم انها سوف تنفض يدها من المسؤولية في فلسطين اعتبارا من منتصف ليلة ١٤/١٥ مايو عام ١٩٤٨ . وفي خلال ذلك كانت الأمم المتحدة قد شكلت لجنة لتحقيق من فلسطين ومرة أخرى ساعد العرب في النكبة بمقاطعة الأمم المتحدة . لعدم وجود أية آراء أو معلومات عربية عادت اللجنة الى فكرة التقسيم بأغلبية ٧ أصوات ضد ٣ وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وبعد ممارسة اشد الضغوط على حلفاء أمريكا وخاصة دول أمريكا اللاتينية لتأييد مشروع التقسيم — قررت الجمعية العامة بأغلبية ٣٣ صوتا مقابل ١٣ صوتا (وقد صوت الاتحاد السوفييتي مع الأغلبية) تقسيم فلسطين الى دولة عربية ودولة يهودية طبقا للخطوط التي اوصت بها لجنة التحقيق (والذي أعطى للعرب اقل واليهود اكثر مما جاء في أية مشروعات سابقة) ، وبهذا وافقت على انشاء دولة اسرائيل عند نهاية الانتداب البريطاني .

وعلى الأثر بدأ قادة البلاد العربية المجاورة في الاستعداد لليوم الذي تنسحب فيه بريطانيا من فلسطين لكي يدخلوا ويخنقوا الدولة اليهودية الوليدة في لحظة مولدها . وقد خانتهم الحكمة عندما اتجهوا الى الذي يطلبون عنده الارشاد . كان الحاج أمين الحسيني بعد أن أيد انقلابا مواليا للألمانيا في العراق قد قضى السنوات الأربع الأخيرة للحرب في برلين يحمل حملات شعواء على بريطانيا من راديو هتلر ويحاول عبثا تحريض العرب على الثورة ضد الحلفاء . وفي ديسمبر عام ١٩٤٧ استطاع من مقره الجديد في القاهرة اقناع الدول العربية بإرسال فرقة من الفدائيين

الى فلسطين لكي تمهد الطريق أمام زحف الجيوش العربية الرئيسية بعد انسحاب البريطانيين . ولكن خطة العنف فشلت ، اذ كان الفدائيون الذين تلقى معظمهم العلم في جيش التحرير العربي : مجموعة غير نظامية أثبتت أنها ليست نداً للقوات اليهودية : لانهم تمكنوا اليهود من الاستيلاء على نحو أربعين قرية في اتجاه القدس : حيث كانت مجموعة يهودية أخرى تنتظر الاستيلاء على القدس الجديدة بمجرد انسحاب القوات البريطانية .

وفى ١٥ مايو ما ان انسحب البريطانيون وظهرت دولة اسرائيل حتى قامت الجيوش العربية بالهجوم ؛ المصريون في الجنوب من طريق غزة ؛ والعراقيون والجيش العربي الأردني بقيادة الجنرال جلوب من طريق الضفة الشرقية ، والسوريون واللبنانيون في الشمال من طريق الجليل . وفي أول الأمر حقق العرب تقدما طيبا ؛ فبعد شهر من القتال احتل المصريون النقب ؛ واستولى الفيلق العربي على القدس القديمة حتى وصلوا الى مسافة عشرة أميال من البحر الأبيض المتوسط عند اللد ؛ واندفع العراقيون حتى صاروا على بعد ١٥ ميلا من حيفا ؛ وكان السوريون واللبنانيون في الشمال هم وحدهم الذين تعثروا في التقدم .

عند هذا الحد تولت الأمم المتحدة عن طريق وسيطها الكونت فولك برنادوت السويدي الذي كلا الجانبين بهدنة . ولقد كانت هذه الخطة موازنة للعرب ولا شك لاستغلال تقدمهم والتفاوض عن طريق الأمم المتحدة للحصول على تسوية أكثر انصافا من مشروع التقسيم الذي فرضته الأمم المتحدة . ولكن بعد أربعة أسابيع من المفاوضات العقيمة اكتشف نبأ عن الجرائم الفاضحة التي

أنزلت باليهود ، وانساقا وراء الجماهير في العالم العربي التي راحت تطالب بجولة أخرى — فقد حشدت الجيوش العربية الهجوم وهي واثقة أنها بدفعة أخرى سوف تجهز على إسرائيل . ولكن القيادة العسكرية الإسرائيلية كانت قد استغلت الهدنة وحصلت على أسلحة وطائرات من روسيا وتشيكوسلوفاكيا متحدية الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة على تزويد المحاربين بالأسلحة . وهكذا شنت الجيوش الإسرائيلية هجوما مضادا أدى إلى استيلائها على اللد والرملة وطرد جميع سكانهما واجتياح الجليل كله . واضطر الجيش العربي إلى تحويل القوات من القدس لسد الثغرات بسبب الهجوم الإسرائيلي ، وفقدوا آخر فرصة أمامهم للاستيلاء على القدس الجديدة .

وفي ١٨ يوليو قررت الأمم المتحدة هدنة ثانية . ومرة أخرى استغل الإسرائيليون فترة الهدنة للحصول على الأسلحة والطائرات من الكتلة السوفييتية . ولم تكن هذه الفرصة مهيأة للعرب الذين كانوا يعتمدون على السلاح من الدول الغربية وكانت ملتزمة بالحظر الذي فرضته الأمم المتحدة . والأكثر من هذا أن العرب أخطأوا إلى حد كبير في تقدير حجم القوات اللازمة لإلحاق الهزيمة بالإسرائيليين : وكان الجيش الإسرائيلي يزيد فعلا على ضعف القوات العربية مجتمعة : فلم يكن للعرب أكثر من ٤٩ ألفا في الميدان بما فيهم أتباع القاوقجي غير النظاميين ، في حين كان لإسرائيل ١٢٠ ألفا .

وبهذا التفوق في الرجال والمعدات خرق الإسرائيليون الهدنة مرة ثانية : وفي ١٥ أكتوبر زحفوا على النقب في الجنوب . فاستولوا على بئر سبع في خلال أسبوع

واخترقوا خطوط المصريين نحو غزة . ورغم الدعوة الى هدنة ثالثة ، فما كان يمكن الآن ان ينسحب العرب بعد أن جميع الأرض التي لبسوها ، بل واكثر منها . وفي فبراير ١٩٤٩ وقعت مصر هدنة مع اسرائيل . وتلتها لبنان بعد اربعة اسابيع ، وعاد السوريون والعراقيون الى بلادهم مهزومين ، وكان الاسرائيليون يحتلون الآن كل النقب حتى خليج العقبة ، وفي ابريل وقع شرق الأردن الهدنة بدوره .

لقد انتهت الحـــــرب . وضعت فلسطين . وظفرت اسرائيل ليس فقط بكل الأرض التي منحت للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم ، ولكنها انتزعت ايضا حوالي نصف الأرض المخصصة للعرب .

ولكن كان اشنع واشيع شيء هو مصير سبعمائة الف لاجئ عربي كان بعضهم قد هرب امام زحف اليهود ؛ وبشكل معظمهم كأهل اللد والرملة قد طردتهم الجيوش الاسرائيلية من ديارهم ومزارعهم ؛ ووجـــــدوا انفسهم مكدســين بصورة مخزية في معسكرات اللاجئين في عمان أو قطاع غزة وفي الضفة الغربية التي كان من المفروض أن يكون الدولة العربية ، يعيشون على الاحسان الذي سمحت به الأمم المتحدة ؛ محـــــرومين من الحق الاولى في اعادة توطينهم في ارض اسلافهم منذ اقدم العصور .

ومن الاعتبارات المرة أن مأساة فلسطين لم تكن غلطة بريطانيا أو الدول الغربية أو الأمم المتحدة وحدها ، فحكم اضاع العرب فرصـــا حقيقية كان يمكن أن تحقق لهم مطالبهم ولو مجزأة . ولا شك ان اللوم في هذا يقع على الصلابة من الزعمـــاء الذين طالبوهم في تطرف اعمى برفض اي تفاهم وتراضي ، حتى انهم راحوا بعد فوات

الاوان يرفضون عقلاً نهم مبدين استعدادهم بقبول التقسيم الذي قررته الامم المتحدة . وبعد أن وقفت اسرائيل القتال في بوصة واحدة من الأرض التي غزتها ، فان كل ما استطاع العرب تحقيقه ، او بالأحرى الامير عبد الله ، هو وضع ما بقي من الدولة العربية المعزولة الأوصال تحت جناح شرق الأردن ، وهكذا وسع عبد الله نطاق ممتلكاته التي اصبحت تعرف باسم المملكة الأردنية ، والتي يتكون ثلث سكانها من فلسطينيين ، نصفهم من اللاجئين .

ان هذا الملك قد حطم في النهاية آمال المفتي في العودة كزعيم لفلسطين عربية . فخلال الحرب مع اسرائيل كان المفتي قد شكل « حكومة عربية لعموم فلسطين » لكي تتولى الزمام في المناطق التي يسيطر عليها العرب ، وجند جيشاً خاصاً لتأييده . ولكن الفيلق العربي بأوامر من عبد الله فرق شمل هذه المجموعة غير النظامية ، وحمل المفتي على الرحيل . فكان هم عبد الله لما تبقى العرب في فلسطين ، بالاضافة الى الصراع الطويل بين الرجلين حول السياسة والتكتيكات العربية خلال الانتداب - كان هذا وذاك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير في نظر المفتي . وفي ٢٠ يوليو عام ١٩٥١ اطلق خادم مأجور من قبل المفتي النار على عبد الله فصرعه وهو يغادر المسجد الاقصى في القدس بعد صلاة الجمعة .

ولكن هذه الحلقة الطافحة بالآلام في التاريخ العربي لم تنته فصولاً .

الفصل السابع والعشرون :

عهد نوري السعيد
المتسول الأكبر

في الوقت الذي كانت فيه فلسطين تنحدر الى الكارثة خلال الثلاثين سنة التي اعقبت نقلها من الوصاية التركية الى الوصاية البريطانية في عام ١٩١٨ ؛ كان العراق يحقق شيئا من التوسع الاقتصادي والسياسي لم يعرفه منذ عهد الازدهار في ظل الخلافة العباسية . معتمدا على الذهب الأسود من آبار البترول في الموصل وكركوك والبصرة ؛ وخرجت الدولة من الشرنقة التي اختبأت فيها طوال اربعة قرون من الحكم العثماني .

ان نظام الحكم كان حكم اسرة تؤازره بريطانيا ، مع قشرة مظهرية من الديمقراطية البرلمانية الحديثة ويرجع ذلك الى حد كبير الى تأثير نوري السعيد ؛ ذلك الدكتاتور الناعم الظفر الذي بدا كشخصية عجوز ولكنه حكم العراق بقبضة من حديد معظم هذه العقود الثلاثة ، واسلم زمامه لبريطانيا بالتملق الى حد جعلها تعطيه كل ما يريد ، حتى وصفه سفير بريطاني بأنه « كان أكبر منصرف في حرفته » .

ولد نوري السعيد في ديسمبر عام ١٨٨٨ في عهد السلطان عبد الحميد من اسرة فقيرة في بغداد كانت تعيش في بيت جدرانه من الطين . وفي عام ١٩١٠ وبعد أن تلقى تعليمه في كلية حربية في اسطنبول تزوج اخت صديقه الحميم في بغداد جعفر العسكري الذي تزوج اخت

نوري بالدور . وفي عام ١٩١٧ انضم الى مجموعة جعفر الذي كان قد هرب من الجيش التركي وتولى قيادة قوات فيصل في سوريا . ولما دخل فيصل دمشق في اكتوبر ١٩١٨ جعل نوري قائدا لحامية المدينة . ومكافأة له على جهوده رقي الى رتبة جنرال ، ومنحته بريطانيا اكثر من وسام . وبعد ان طرد الفرنسيون فيصلا من سوريا صحبه نوري الى المنفى في فلسطين .

ثم كانت ثورة قبائل وادي الفرات في يونيو ١٩٢٠ ضد الحكم الاستعماري البريطاني المباشر وما انتهت اليه من السماح للعراق بانتخاب برلمان وحكومة تمثيلية مع بقاء الموظفين البريطانيين كمجرد مستشارين في الظاهر ، واختيار فيصل ملكا على الدولة العراقية في ٢٣ اغسطس عام ١٩٢١ . وهنا لم ينس فيصل ان هذا الانتخاب قد تم الى حد كبير بفضل الحماسة في تعبئة اصوات الناخبين من جانب نوري صديقه وخادمه المخلص . فمنذ ذلك الحين زادت الصلات توثقا بين الاثنين ، واصبحت قصة العراق هي قصة ما ربط بين الاثنين من مشاركة وتفاهم . ولعله بغيرهما ما كان يمكن ان يتم ما تم من بناء دولة متماسكة في العراق فيما بين الحربين العالميتين . ذلك انه ما من بلد عربي آخر كان يعاني تلك الكثرة من المشكلات والانقسامات . فقد كان العراق شعبا من اقليات عنصرية ودينية ، كان ثلاثة ارباع سكانه البالغ عددهم ثلاثة ملايين من العرب ، ومن الربع الآخر المتمركز اساسا في منطقة الموصل نصف مليون من الاكراد . ومن الناحية الدينية كان المسلمون ينقسمون بالتساوي بين الشيعة واهل السنة ، مع ما يتصل بهذا من تنافس تاريخي تقليدي .

والى جانب هذه الصعوبات كانت المنازعات القبلية دائمة حول ملكية الأرض وحقوق الماء خصوصا في وادي الفرات . وعلى الحدود كانت الصدامات مستمرة مع القبائل السعودية ومع الكويت التي كان العراق يطالب بضمها إليه . وقد سبب الأكراد المتاعب أيضا فطالبوا من مستهل عهد ... بنوع من الحكم الذاتي ودعمه دولة عاصمة هي ... الاستقلال الداخلي . ومع ذلك فقد استطاع فيصل التغلب على هذه المشكلات ، فقد اشترك الأكراد بما يرضيهم من ممثليهم في الحكومة العراقية ؛ ومنح العرب حقوق العراق . وبعد أن اتفق مع الكويت على حالة ؛ عقد معاهدة مع السعوديين اتفاقا حول الحدود .

وكان نوري وفيصل يعرفان أن أهمها توطيد التعاون مع بريطانيا بسلطان أحسن على استقلال العراق . وفي أكتوبر ١٩٢٩ أبدل الانتداب بمعاهدة تحالف . وفي سنة ١٩٢٦ ثم في ديسمبر ١٩٢٧ وقعت اتفاقات أعطت العراقيين مزيدا من الاستقلال الداخلي . ثم عقدت في يونيو ١٩٣٠ بعد أن أصبح نوري رئيسا للوزراء لأول مرة معاهدة نهائية أعطت العراق استقلاله ؛ مع عقد تحالف عسكري مع بريطانيا لمدة خمس وعشرين سنة .

هكذا وصل نوري الآن إلى أوج حياته السياسية . ولكن وفاة فيصل في سبتمبر عام ١٩٣٣ بهبوط في القلب أطاحت بنوري السعيد . وفي غضب الخلاف الذي غرق فيها العراق الذي حقق العسكري ؛ ولجأ نوري إلى مصر ؛ ولكنه استطاع أن يعود في عام ١٩٣٨ ليصبح رئيسا للوزراء المرة الثانية .

ولكن متاعب العراق لم تكن لها نهاية . فقد قتل الملك

غازى ابن فيصل بحتفه فى ابريل عام ١٩٣٩ فى حادث سيارة وخلفه فيصل وهو طفل فى الثالثة من العمر ، واسندت الوصاية على العرش الى الأمير عبد الاله وهو ابن عم على ملك الحجاز المعزول ، وعند نشوب الحرب العالمية الثانية نفذ نورى السعيد التزامات العراق لبريطانيا طبقا لمعاهدة ١٩٣٠ وطرد المبعوث الالماني وجميع الرعايا الالمان ، وأكد تأييد العراق التام لقضية بريطانيا .

على ان عام ١٩٤٠ شهد ازدياد قوة العناصر الموالية للالمان من الوطنيين المتطرفين وعلى رأسهما الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين السابق الذى جاء الى العراق من منفاه فى بيروت ، وكذلك رشيد عالى الكيلانى وهو محام عراقى أسس حزب الاخوة الوطنية المطالبة باستقلال العراق . وقد انضم الى هذه القوى الموالية للالمان جماعة « المربع الذهبي » وكانت تتألف من اربعة من قواد الجيش والطيران البارزين ، واستغل هؤلاء جميعا العناصر الموالية للالمان فتمكنوا من الضغط على الامير عبد الاله الوصى على العرش وتعيين رشيد عالى الكيلاني رئيسا للوزراء ، وان سمحوا لنورى السعيد بالبقاء فى الحكومة وزيرا للخارجية ستراً للمظاهر ، ولكنه استقال فى ابريل عام ١٩٤١ عندما أخفق فى استمالة الجميع الى جانب بريطانيا . وظل رشيد عالى والمربع الذهبي يشددون الضغط حتى تمكنوا من عزل الوصى على العرش بقرار من الجمعية الوطنية ، وفى ٢ مايو اعلن رشيد عالى الحرب على بريطانيا . ولكن نورى والوصى تمكنا من الالتجاء الى السفارة البريطانية ، ولم لهربهما الى شرق الاردن .

وفى خلال ذلك ادى حصر البريطانيين للهجوم الالمانى فى جزيرة كريت الى قطع امداد الاسلحة الالمانية عن

جماعة الربع الذهبي ، مما ادى الى انهيار الانقلاب الذي قام به رشيد عالي وتأييده بعد اعلان الحرب على بريطانيا بأربعة اسابيع ، وعلى الأثر هرب رشيد عالي والمفتي وجماعة الربع الذهبي الى طهران ، وعاد نوري وعبد الاله الى بغداد مظفرين .

ولكن نوري السعيد بدلا من استئناف منصبه كرئيس للوزراء قصد مع بعثة الى القاهرة لكي يقترح على المصريين مشروعا لاقامة اتحاد بين البلاد العربية كان في حقيقته احياء لفكرة الهلال الخصيب الذي يضم العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن مع انضمام البلاد العربية الاخرى اليه فيما بعد ، وكان يهدف من ورائه الى خلق دولة عربية عليا بزعامة العراقيين والهاشميين . ولكن المصريين الذين فطنوا الى هذا الهدف رفضوا المشروع رغم محاولات نوري المتكررة فيما بين ١٩٤٢ وعام ١٩٤٤ . وتقدمت الحكومة المصرية بدلا منه مشروعا آخر ايدته بريطانيا لقيام وحدة بين البلاد العربية هو مشروع الجامعة العربية من مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن واليمن والعربية السعودية ، مع اتخاذ القاهرة كمقر لها ، ويكون لمصر فيها النفوذ الأغلب . وفي مارس ١٩٤٥ اضطر نوري السعيد الى توقيع العراق مع جميع تلك الدول العربية على ميثاق الجامعة العربية ، ثم استقال من رئاسة الوزارة .

ولكن قبول نوري للجامعة العربية بدلا من الهلال الخصيب لم يكن معناه انه قبل الزعامة المصرية . وعلى الرغم من بعده عن المناصب الرسمية في السنوات الاربع التالية ، الا انه بدأ يتزعم نضالا من أجل القوة ضد مصر — ذلك النضال الذي استمر الى ما بعد مصرعه في انقلاب

عام ١٩٥٨ على يد اللواء عبد الكريم قاسم ، والذي ألقى فيه بدوره بمسئولية الضغط على جمال عبد الناصر .
والواقع أن هذا الصراع كانت له جذوره في التاريخ العربي ، فالتنافس بين القاهرة وبغداد قائم منذ عهد أصلاب الخلافة العباسية عندما جعل صلاح الدين من مصر قاعدته لتحرير فلسطين من الاحتلال الصليبي ، وبعد أن صد بيبرس الزحف المغولي بعد ذلك بمئة عام ، وبهذا أنقذت مصر الشرق الأوسط من المغول ، كما أنها كانت أول دولة عربية تنسحب من السلطة العثمانية .

بيد أن حملة نوري السعيد العدائية لمصر لم تكن كافية لترضية الجمهور في بلاده ؛ وبدأ العراق يعاني من مشاكله إبان ... الحرب العالمية الثانية ؛ وقد تمثل ذلك في كثرة الحكومات المتتالية ، وازدياد الشعور المعادي لبريطانيا والداعي لإعادة النظر في المعاهدة المعقودة بين العراق وبريطانيا عام ١٩٣٠ .

ومرة أخرى استدعى الوصي نوري السعيد لتشكيل حكومة جديدة في عام ١٩٤٩ ، وفي هذه المرة قرر نوري أن يركز سياسته على التنمية الاقتصادية الداخلية ، وفي الشئون الخارجية عاد إلى مشروع الهلال الخصيب ، ولكن في صورة أخرى ، فقد ركز على اتحاد سوريا مع العراق ، وفي هذا كان نجاحه محتملا ، ولا سيما بعد ثورة مصر في عام ١٩٥٢ عندما أخذت دعوة جمال عبد الناصر القومية تحدث تأثيرها القوي في الرأي السوري ، وبعد أن اختارت سوريا الانضمام إلى مصر في الجمهورية العربية المتحدة ؛ تاركة نوري السعيد يبحث عن شيء آخر ، وقد تمثل هذه المرة في

الحماد توتراتي بين الملكين الهاشميين في العراق والأردن .

ولكن طموحات نوري السعيد اتجهت الى مجال آخر عندما تعرضت علاقة العراق الدفاعية مع بريطانيا فأصبحت مشاركة معها في حلف عسكري جديد بين جيران روسيا في الشرق الأوسط . وكانت بريطانيا قد حاولت منذ عام ١٩٥١ انشاء نظام دفاعي لشرق الأوسط يضم العالم العربي ؛ ولكن المحاولة قوبلت بمعارضة من جانب مصر ، فاتجهت لندن ودبلوماسيتها الى عراق نوري السعيد والى تركيا للاشتراك في ايجاد درع عسكري للأقاليم المكونة لشمال الشرق الأوسط المجاورة للاتحاد السوفييتي . وفي فبراير ١٩٥٥ انطرح نوري لارتباطهما بحلف عسكري مع تركيا عرف باسم ميثاق بغداد لم تلبث بريطانيا ان انضمت اليه بعد بضعة اسابيع ، وسرعان ما انضمت باكستان وايران الى الحلف التكملا لخط الدفاع على طول حدود روسيا الجنوبية .

ولقد اثار التوقيع على ميثاق بغداد عاصفة احتجاج من القاهرة ؛ التي رأت فيها محاولة لاحياء فكرة الهلال الخصيب بطريقة الباب الخلفي بعد استدراج بلاد عربية اخرى اليه مثل سوريا والأردن . واشتدت حملة القاهرة على نوري السعيد وعبد الإله باعتبارهما اعداء للوحدة المصرية وعملاء للامبريالية الغربية ، ووصفت سياسة نوري في التعاون مع الغرب بالفشل .

وفي خلال ذلك كان الاستياء يتزايد بين الساسة وضباط الجيش الشباب من الجو الخانق في العراق ، ولا سيما بعد أن حل نوري جميع الأحزاب السياسية وركز كل السلطات في يديه . ومع ازدياد القوى التي

تساند نظام ناصر الجمهوري وسياسة الحياد في كل بلد عربي ، فقد استهدف العراق لعزلة خطيرة من الدول العربية الشقيقة ، وتزايد القلق حتى بين زملاء نوري بشأن مستقبل نظام الحكم .

ثم جاءت لحظة في يوليو عام ١٩٥٦ كان يمكن لها أن تخلص العراق من عزلته في الجامعة العربية ، لولا حادث تأميم ناصر لقناة السويس التي ارتكبت فيه بريطانيا أشنع أخطائها في الشرق الأوسط . وقد تصادف أن كان نوري السعيد والملك الشاب فيصل في لندن عندما أعلن ناصر قراره ، فبادرا بالاشارة على السير أنتوني ايدن باتخاذ اجراءات حازمة ، ويبدو أن هذه المشورة وجدت صداها . فقد بدأت بريطانيا ممارسة ضغط دبلوماسي مع الدول الغربية الرئيسية الأخرى في العالم لم تلبث أن تحولت نهاية الأمر بحشد عسكري انكليزي مع فرنسا ، فصحبوا ذلك خاتمة تشير الى تعبئة اسرائيلية . وعندما هجم الاسرائيليون عبر سيناء الى السويس ، انذرت بريطانيا كلا الطرفين بالابتعاد عن القناة ؛ وكان مدلول هذا حسن العربي شكل التقهقر والتخلي عن كل سيناء للغزاة ، والسماح للاسرائيليين بالتقدم أكثر من مئة ميل في الأراضي المصرية .

وسرعان ما أثارت هذه الدعوة الصارخة لاستيلاء اسرائيل على عشرين ألف كيلو متر مربع من مصر ثورات الغضب العارم في جميع انحاء العالم العربي ضد اسرائيل والبريطانيين والفرنسيين وضد حلفائهم وعلى رأسهم نوري السعيد ، واضطر نوري في النهاية الى مجاراة المشاعر العربية ؛ فقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، وانضم الى الجميع في التنديد باسرائيل . كما أصر على

بريطانيا بالابتعاد فترة من اجتماعات ميثاق بغداد الى ان تهدأ العاصفة .

واذا كان نوري قد نجح بهذا في تسكين المشاعر الشعبية الهائجة ، فانه كان أول المخدوعين بهذا الهدوء الظاهري ، واستخف بالتحذيرات التى كان يتلقاها من مؤامرات تحاك من بعض قادة الجيش لاسقاطه . وفي نهاية الاسبوع المليء بالسوء قبل ثورة اللواء عبد الكريم قاسم في عام ١٩٥٨ ضرب نوري بكل الحيطة ادراج الرياح عندما سمح بوجود جماعة عسكرية مسلحة في بغداد دون أن تقابلها قوة مضادة لمواجهتها اذا فكرت في القيام بأي انقلاب .

فقد كان قاسم على رأس قوة في طريقها لتعزيز قوة الملك حسين لمقاومة ثورة تنشب في الأردن كالتي نشبت حديثا في لبنان ضد الرئيس شمعون الموالي للغرب . وسرعان ما ضرب قاسم ضربته التي ظل سنوات يعد لها العدة بعد أن تأكد ان اللواء الذي يقوده هو القوة الوحيدة في بغداد تلك الليلة (١٣ يوليو) . وبعد اتصال سريع ببعض الضباط المعروفين بمعارضتهم لنظام الحكم ، فقد استولى على محطة الاذاعة واعلن أن الثورة انتهت وان الملك وعمه عبد الاله ونوري السعيد قد لقوا حتفهم . ثم أمر قواته بالتوجه الى القصر لتنفيذ هذا الذي أعلنه . فقام رجال قاسم بتصفية الأسرة المليكية بأسرها [illegible] ، ولقي نوري مصرعه وهو يحاول الافلات . وفي خلال ذلك احرقت الجماهير السفارة البريطانية ظنا بأنه احتمى بها على نحو ما فعل في مناسبة سابقة .

ومهما قيل في تبرير تعاون نوري السعيد الوثيق مع بريطانيا من أن هذا التعاون أدى الى بناء قوة العراق

الاقتصادية والعسكرية بعد أربعة قرون من الحكم العثماني ـ فإن الجيل الجديد من القوميين العرب أصبح يتطلع للاستعداد من الغرب ، من بعده لوعده الخيانة.
ولم يبرح الأذهان ما حلت به فلسطين وسوريا من مجاعة على أيدي دول الغرب التي لم تتورع عن الغدر بالعرب والتنكر لوعودها معهم ، ثم ان ثورة عربية جديدة قد تفجرت في العالم يقودها رجال مثل جمال عبد الناصر ـ رجال أقسموا أن يخلصوا العرب من تهديدات ومهانات الاحتلال الغربي والوصاية الغـربية ؛ وان يقضوا على الخونة من خشية ودت العهد الذي مات ، ويعمل مع من خانوا الحرية العربية وحطموا الوحدة العربية .

الفصل الثامن والعشرون :

مصر من كرومر إلى ناصر

كان دور بريطانيا في مصر حتى ثورة ١٨٨٢ بقيادة أحمد عرابي لا يزيد كثيراً عن دور المراقب المالي . فالخديو إسماعيل المبذر قد ضاعف ديون مصر من ٣ مليون جنيه إلى ٩١ مليون جنيه ؛ واضطر إلى بيع أسهمه في قناة السويس للوفاء بديونه للدائنين الأوروبيين . وبعد ذلك فرضت بريطانيا وفرنسا وغيرهما من القوى الأوروبية رقابة مالية على الانفاق العام المصري عن طريق لجنة دولية . وعلى الرغم من أن الضباط البريطانيين كانوا يعملون في جيش الخديو ، إلا أن القوات البريطانية لم تكن قد احتلت بعد بوصة واحدة من أرض مصر .

ولكن هذا كله قد تغير بعد هزيمة عرابي في التل الكبير في سبتمبر ١٨٨٢ . كانت مصر لا تزال من الوجهة الاسمية جزءا من الامبراطورية العثمانية ، ولكن الباب العالي لم يبذل أية محاولة لتأكيد سلطته . وبعد أن صار لبريطانيا جيش في مصر ، أصبحت لا تسيطر على ماليتها فقط ، بل تسيطر بالفعل على البلاد كلها أيضا ، وكانت النفوذ ضاربة أطنابها في كل مكان ؛ إذ كانت الحكومة المصرية أداة عزلاء في يدي خديو مستبد ومغلوب على أمرها

في معاملاتها المالية بسبب الامتيازات التي منحتها الامبراطورية العثمانية للدول الأوروبية في القرن السادس عشر ، فقد كان رعايا هذه الدول لا يخضعون للقضاء المصري ، وكانت مخالفاتهم يفصل فيها قناصل دولهم ، ونتيجة لهذا كان الفرنسيون الأوروبيون يرتكبون الجريمة والاجرام والهرب من الضرائب وهم في حصانة كاملة .
وعندما عين اللورد كرومر (اللورد كرومر فيما بعد) بعث لقب متواضع هو قنصل عام بريطانيا ، واجه مهمة شاقة : اذ كانت السلطة كلها مركزة في يد الخديو وليس هناك برلمان او احزاب سياسية ، ولكنه استطاع استنادا الى جيش الاحتلال وسلطته المالية ان يحد من سلطة الخديو لصالح الطبقات المظلومة ، فالغيت السخرة والضرائب التي كانت تجبى بالكرباج ، ووضعت نظم جديدة لضرائب الاطيان تقع على الاغنياء لا الفقراء ، ولاول مرة امكن الوفاء بالالتزامات المالية ، ولكن كرومر اهمل اصلاح التعليم ، ولم يعمل على ايجاد جهاز دستوري به ادارة مصرية مسئولة لممارسة السلطات التي انتزعها من الخديو ، ولم يكن الوزراء الذين عينهم كرومر اكثر من دمى يحركها بيديه ، وفي مجال السياسة الخارجية كانت بريطانيا مشغولة بالمطامع الفرنسية في مصر ، فان فرنسا لم تكف عن معارضتها لازاحة نفوذها كالقوة المتفوقة في مصر ، وهو مركز احتفظت به منذ ان بنى فرديناند دلسبس قناة السويس . وعلى الرغم من كل ما اعلنه على التوالي رئيس وزراء بريطانيا من انه ليس لها دوافع استعمارية ، فانها لم تكن تعتزم الخروج من مصر تحت اية ظروف اذا كان معنى هذا تمكين فرنسا من حرية التصرف في مصر .

ولكن بعد ذلك بعشرين عاما ، اى في عام ١٩٠٤ ، عقدت

مشكلات بريطانيا مع فرنسا بابرام « الاتفاق الودي » الذي تخلت بمقتضاه فرنسا عن دعاواها في مصر مقابل اطلاق يدها في مراكش .

بيد ان القلق الوطني ما لبث ان تجلي واتسع نطاقه بعد اعتزال كرومر وتعيين السير الدون غورست مكانه ، فان هذا الاخير عكس سياسة كرومر واعاد الى الخديو عباس حلمي كثيرا من السلطة التي انتزعها كرومر منه . كان هذا الخديو من اشد انصار الحكم التركي التعلق ولهذا استعان بالتجار وملاك الاراضي الاغنياء لاعلان الحرب على قادة الفكر الحر ، واستخدم الصحافة لمهاجمة الادارة البريطانية سترا لغرضه الحقيقي . وكانت النتيجة المحتومة ان الرأي العام انقلب على الوطنيين البريطانيين ، وكان سماح بريطانيا بانشـــــاء جمعيات لمقاومة محلية ومركزية وسيلة اخرى استعان بها الخديو عباس حلمي لتكون منبرا يهـــــاجم منه الوطنيون البريطانيين في كل مناسبة تحريضا للجماهير على استخدام العنف .

وبحــــلول عام ١٩١١ كانت مصر في حالة من الفوضى الشاملة بسبب الاضطراب السائد . وعندما توفي غورست فجأة خلفه في منصب القنصل البريطاني في مصر اللورد كتشنر وكان جنديا يكره الساسة المتنافين الذين كانوا مستعدين للخديو ولا هم لهم ســــوى الاثراء على حساب الشعب . فعمل على توسيع نطاق حماية الفلاحين باصدار قانون « الخمسة افدنة » لمنع طرد صغار الفـــلاحين من اراضيهم بسبب عدم سداد الديون ، متجاهلا احتجاجات كبار الملاك .

وعند نشوب الحرب العالمية الاولى وانضمام السلطان العثمـــــاني الى الالمان في اكتوبر ١٩١٤ اعلنت بريطانيا

الحمايه على مصر وعزلت عبـــاس حلمى الوالى للأبد لصالح عمه حسين كامل خوفا من تهديد القواعد التركية في فلسطين لمصر وقناة السويس ، وبدأت تنظم الدفاع عن البلاد ضد الجيوش العثمانيه .

والواقع ان سنوات الحرب العالمية الأولى الأربع كانت بالنسبة الى مصر عبودية وتعاسة . فلم يكن في مصر حكومة من صنعها ؛ وكان المندوب السامى البريطاني هو الحاكم الفعلي . وقد قرر هو والقادة العسكريون ان يستخدموا أرض مصر والأيدى العاملة والمحاصيل فيها للمجهود الحربى دون حاجة الى تأييد عسكرى مصرى ، وبسبب هذه المعاملة الذليلة للمصريين خصوصا من جانب القوات البريطانيه وتصرفاتها المهينة ؛ تولد استياء عميق في النفوس ملأها سخطا ومرارة ، ولا سيما بعد عودة نظام السخرة والاستيلاء الجبرى من الفلاحين على العلف والحيوانات لسد حاجة الجيوش المحالفة .

وبانتهاء الحرب كان الرأى العــــام المصرى في حالة متفجرة الى حد كبير ، ولم يكن يحتاج الا الى زعيم شعبى ليطلق الانفجار . وقد لبى هذه الحاجة سعد زغلول أحد زعماء المعارضة في الجمعية التشريعية والصديق الحميم للطفى السيد نبشرف الفكر الليبرالي المصرى منذ بداية القرن العشرين . كان زغلول وهو ابن فلاح مصرى قد استطاع ان يتزوج ابنة أحد رؤســــاء الوزارات في عهد عباس حلمى ، وكان عباس حلمى يبغضه بارتيابه العميق بسبب معارضته لأطماع الخديو . ولــكن آراءه الليبرالية راقت كرومر الذى عينه وزيرا للمعـــارف عام ١٩٠٦ ، وشغل زغلول هذا المنصب اربع سنوات ، وظل ثلاث سنوات أخرى وزيرا للحقانية . ولكنه تشاجر مع كتشنر عام ١٩١٣

واستقلال ؛ ورغم ذلك انتخب عضواً في الجمعية التشريعية، ومنذ ذلك الحين استخدم حريته النسبية في الدعوة إلى تطويرها إلى ديمقراطية مصرية لمصر ـ على أســاس دولة علمانية ليبرالية تجري فيها تنمية الاقتصاد ؛ وزوال النفوذ التركي في السياسة ، والعمل لحساب الزراعة ؛ وتعطيل قوة البدويات . وكان موقفه إزاء الاحتــــلال والحكم البريطاني موقف المتساهل لاستخدامه في كبح سلطة الخديو وسطوة الإقطاع . كما شاء البريطانيون في مصر حماية مصالحهم بعد هزيمة الإقطاع مواجهة للشعـــور الوطني المصري . وهكذا لم يمض يوماً على انتهاء الحرب العالمية الأولى حتى توجه زغلول إلى المندوب السامي البريطاني مع زميلين ونصب على رأس وفد وطني وطالب بالنيابة عن الشعب المصري بالاستقلال التام عن الحكم البريطاني .

كان الرد على ذلك هو أن بريطانيا لا يمكن أن تناقش مثل هذه المســائل مع جهة غير رسمية . كما قوبل بالرفض اقتراح رئيس الوزراء المصري عدلي باشا بالسفر إلى لندن لإجراء محادثات مع الحكومة البريطانية . فانتهز زغلول الفرصة لإثارة الرأي العام ، وأســس حزب الوفد تحت زعامته . وفي مارس ١٩١٩ وجه خطاباً تهديدياً إلى سلطان مصر ـ إذ كان لقب الخديو قد تغير منذ الانفصال الرسمي عن تركيا في عام ١٩١٤ ـ اتهمه فيه مع الحكومة بعدم الكفاح من أجل قضية الاستقلال . فاعتقل زغلول مع أقرب مؤيديه ونفوا إلى مالطة ؛ وفي اليوم التالي قامت أعمال الشغب في القاهرة ، ثم انتشرت في المديريات في مدى أسبوع مقترنة بأعمال العنف ، وقتل عدد من الأوروبيين .

واذا كانت بريطانيا قد استدعت مندوبها السامي الذي حل محله اللورد اللنبي والرجت عن سعد زغلول وسمحت له بالعودة الى مصر ، فانها عمدت الى التسويف والمماطلة في اتخاذ القرار ، وبعثت كعادتها بلجنة تحقيق برئاسة اللورد ملنر . وعندئذ نظم سعد زغلول ورفاقه مقاطعة للجنة على مستوى الامة ، وهاجمتها الصحف بعنف ، وظلت المظاهرات احتجاجا على سياسة التسويف ، وفي خلال ذلك قبض على زغلول مرة ثانية ونفى ، واعقب هذا اضرابات ومظاهرات ، وفي النهاية اتخذت بريطانيا في فبراير ١٩٢٢ قرارها بالغاء الحماية والاعتراف بمصر بلدا شبه مستقل . وطبقا لما كان في الاقاليم الخاضعة للانتداب مثل العراق وسوريا ولبنان ، تقرر ان تكون مصر دولة ملكية ولها برلمان من مجلسين ، على ان تبقى القوات البريطانية للدفاع ولحماية الجالية الاوروبية والمصالح البريطانية مثل قناة السويس وحماية الادارة الثنائية في السودان ، مع عدم المساس بالامتيازات الاجنبية . وبرغم ذلك لقيت هذه القرارات قبولا ، وفي مارس ١٩٢٢ نودي بالسلطان فؤاد الذي خلف اخاه السلطان حسين بعد وفاته في عام ١٩١٧ ملكا على مصر . وافرج عن سعد زغلول في سبتمبر ١٩٢٣ ، وفي اول انتخابات اجريت في ظل الدستور الجديد نال فوزا تاما لنفسه ولحزبه .

لكن المصريين لم يلبثوا ان اكتشفوا ان هذا الاستقلال لم يكن معناه نهاية الاحتلال البريطاني والسيطرة على سياسة مصر الخارجية ، وان حكوماتهم كانت في الواقع لا تزال تتشكل وتتلقى التعليمات على مائدة العشاء في دار المندوب السامي البريطاني ، واتضح الى انه لم يحدث سوى تغيير بسيط بالغاء الحماية . وحدا

قامت المظاهرات من جديد . وفي نوفمبر ١٩٢٤ اغتيل
السير لى ستاك البريطاني سردار الجيش المصرى في
القاهرة ، وعلى الاثر وجه اللنبي انذارا نهائيا الى زغلول
طالب فيه بتقديم الاعتذار اللازم عن الجريمة وتوقيع
العقاب الصارم على مرتكبيها ، مع دفع غرامة للحكومة
البريطانية قدرها نصف مليون جنيه ، وسحب جميع
وحدات الجيش المصرى بالسودان في خلال اربع وعشرين
ساعة . ولقد قبل سعد زغلول المطالب الثلاثة الاولى ،
ولكنه رفض سحب الوحدات المصرية من السودان ، وهنا
استخدمت بريطانيا القوة لاخراجهم ، وبعد ذلك الحين
تولت السلطة الوحيدة في الادارة القضائية .

استقال سعد مضطرا ذليلا ، وعلى الرغم من ان حزبه
فاز بالاغلبية مرة اخرى في انتخابات عام ١٩٢٦ الا ان
المندوب السامي البريطاني لم يسمح له بتولي رئاسة
الادارة بعد ذلك . ثم توفي عام ١٩٢٧ وخلفه مصطفى
النحاس باشا في رئاسة الحزب ، وعلى الرغم من انه هو
الذي تفاوض بشأن معاهدة الاستقلال في النهاية عام
١٩٣٦ ، فان موقف الملاءمة الذي اتخذه زغلول في اوائل
العشرينات هو الذي مهد الطريق ، بعد ان اقتنعت
بريطانيا اخيرا بان مثل هذه المعاهدة ستكفل مصالحها .
والواقع ان سعد زغلول كان منصرفا بكليته الى تحقيق
الحرية لمصر ؛ حتى لم يتفرغ للمشاكل العربية الاخرى
مثل فلسطين ؛ وعندما لجأ اليه وفد فلسطيني في اوائل
العشرينات يطلب المساعدة ، نصحهم ان يتصالحوا مع
اليهود ويعيشوا سويا كما يعيش العربي واليهودي في
مصر .

وفي ٢٤ اغسطس عام ١٩٣٦ وقعت اخيرا معاهدة

بمعاهدة من جانب النحاس وأنطوني ايدن ووضعت نهاية
للاحتلال ، مع السماح لبريطانيا بابقاء عشرة آلاف جندي
في منطقة القناة ، حتى لا يؤذي وجود هذه القوة مشاعر
السكان في المدن مثل القاهرة والاسكندرية ، وقد
اعترفت مصر بأن قناة السويس ممر مائي دولي
حيوي ، على الاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة .
وأصبح المندوب السامي البريطاني سفيرا ، وعندما
ألغيت الامتيازات بموجب اتفاق تم توقيعه في مونتريه
عام ١٩٣٧ ، قضى ذلك على كل أثر للامتيازات الأجنبية
في مصر .

ولكن لم تنقض ثلاثة أعوام حتى حطمت الأحداث التي
أعقبت نشوب الحرب العالمية الثانية هذا السلام والصداقة
النسبي . فمرة أخرى أصبحت مصر ميدان حرب في
الصراع الكبير بين القوى الأوروبية ، فضايقوا من جديد
قواتهم المسموح بها في قناة السويس غير عابئين بالمشاعر
المصرية ، واستمروا يحتفظون بالقوات في ثكنات تقع
في وسط القاهرة ، وقاموا بتحريك جيوش كبيرة في
أنحاء البلاد حسب تطورات الحرب . وأراد الملك
الجديد فاروق وكان فتى مدللا يحب الظهور أن يؤكد
وجوده باسم دولة مصرية ذات سيادة ، فعين في عام
١٩٤٢ أحد مرشحيه وهو حسين سري باشا رئيسا
للوزراء دون استشارة السلطات البريطانية . ولكن السير
مايلز لامبسون السفير البريطاني أراد عودة النحاس
باشا باعتباره باني التعاون الانجليزي المصري — ولكي
يبين السفير من هو الآمر الناهي أمر كتيبة مدرعة
بريطانية بانتهاج قصر عابدين وتوجيه مدافعها نحو مقر
اقامة الملك ، وهكذا أرغم الملك فاروق على قبول من
اختاره السفير البريطاني .

ان هذا العمل المتعجرف كان في الواقع ايذانا ببداية النهاية للتسلط البريطاني في مصر . فما كادت الاهانة التي لحقت بكرامة مصر تنتشر في البلاد حتى أقسم ضابط شاب من ملامحه أنه له هيئة لاعب كرة أمريكي وابتسامة جذابة وعينان ساكنتان ان يثأر لما لحق بكرامة مصر الوطنية من مهانة . ولقد شكل جمال عبد الناصر مع مجموعة من اخوانه الضباط الذين يشاطرونه أفكاره جماعة توجه الملك نحو هذه الغاية . ثم اتضح بمرور الوقت للبكباشي ناصر واصدقائه ان فاروق كان أكثر اهتماما بالنساء والقمار منه بالدفاع عن كرامة مصر وسيادتها . ثم ان حكومته أخفقت أيضا في تكوين الجامعة العربية وميثاق الامن العربي في عام ١٩٤٥ وزعزعت مركز مصر كالقوة الكبرى في هذا التحالف . ولكن بعد انتهاء طوارىء الحرب بسنوات عديدة ما زالت القوات البريطانية تحتل ثكناتها القديمة في القاهرة ، وكانت في منطقة القناة قوات تزيد ثماني مرات عما كان مسموحا به بموجب معاهدة ١٩٣٦ دون ما اعتراض من جانب الملك أو وزرائه . وفضلا عن ذلك ادرك ناصر الذي كان ضابطا اشترك في الحرب العربية الاسرائيلية مدى فساد وعجز الزعامة التي تهيئها الملكية المصرية للجامعة العربية في هذا الاختبار الأول لحروبها المشتركة . وبالنظر الى ما كانت البلاغات الصادرة في القاهرة تواصل اذاعته من انتصارات مثيرة في معارك ناصر يعرف أنها انتهت بهزائم مزرية ، فقد صمم على التخلص لا من البريطانيين وحدهم ولكن كذلك من الملك ومن الساسة الفاسدين من حوله .

ولكن السخط الذي كان يتزايد ضد استمرار احتلال القوات الاجنبية لمصر لم يقتصر على مجموعة ناصر من

الضباط الأحرار . لبقاء القواعد البريطانية أثناء الحرب بعد الاحساس بوجود موجة عميقة معارضة من الشعور المعادي للبريطانيين . وقد حاولت بريطانيا مواجهة هذا بسحب قواتها من القاهرة عام ١٩٤٦ ؛ وعرضت سحب كافة القوات من مصر في العام التالي ؛ ولكن ظلت الأمور في ركود نحو خمس سنوات ، عندما عرضت بريطانيا على مصر في أكتوبر عام ١٩٥١ حلفا للدفاع عن الشرق الأوسط تقوم فيه قيــــادة مشتركة مكونة من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ومصر بالأشراف على القواعد البريطانية في قناة السويس . ولكن هذا الاقتراح كان أبعد من أن يقبله المصريون : اذ كان الرأي العام ولا سيما بين الطبقات المتعلمة مصمما على تجنب تكرار التجـــــربة المحزنة التي مرت بها مصر عندما استخدمت مرتين في خلال خمسة وعشرين عاما مسرحا لحروب لا يد لها فيها .

ونتيجة لهذا استغل فاروق وحكومته التي رأسهـــا النحاس مرة أخرى الفرصة للتظـــاهر بالوطنية بهدف التأثير في أشد الوطنيين المصريين حماسة ؛ فأعلن رفض المقترحات البريطانية على الفور ؛ وألغيت بإجراء من جانب واحد معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر . وفي نفس الوقت بدأت جماعات من الفدائيين بتشجيع الســلطات المصرية حملة من أعمال العنف ضد القوات والمنشآت البريطانية في منطقة القناة وسحب العمال المصريين من كافة القواعد البريطانية .

وفي يناير التالي هاجمت القـــوات البريطانية قرية في منطقة القناة بعد أن رفض سكانها تسليم مواطنين نسب اليهم قتل جنود بريطانيين في الاسماعيلية . فثارت في

القاهرة عاصفة عنيفة من الاحتجاج ، حيث أحرقت الجماهير الغاضبة فنادق شبرد وبعض الأندية وبنك باركليز بين عدد من المباني المرتبطة في الذهن المصري بالجالية البريطانية ، حتى قتل اثنا عشر من أفرادها أو احرقوا في أعمال العنف .

كان فاروق يحصد الآن نتيجة انتظاهر بالوطنية الذى افتعله قبل ثلاثة اشهر فقط . فسرعان ما أنابه الأمر حتى أعلن الأحكام العرفية وأقال النحاس مع وزراء آخرين مرتوا بتشجيع المظاهرات ، وعين محمد علي ماهر رئيساً للوزراء ، وقد اعتبرت تصرفاته بطلة لبريطانيا لكي يحميه : بل بدا عندما استأنفت بريطانيا المفاوضات مع علي ماهر حول مستقبل القواعد في منطقة القناة أنه كان يسعى للتوفيق حتى يستحيل على بريطانيا سحب قواتها من منطقة القناة ؛ لأن وجودها على مقربة يؤدي الى انقاذه في حالة اى تهديد للنظام الملكي .

وبعد أن طالت المفاوضات شهوراً عدة قرر جمال عبد الناصر وزملاؤه توجيه ضربتهم . وقد اقنعوا اللواء محمد نجيب وهو قائد مجرب موفور الاحترام وله سجل ممتاز في الحرب العربية الإسرائيلية ، برئاسة لجنة من اثنى عشر فرداً عهد اليها بمهمة رسم التفاصيل النهائية للضربة .

وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استولى نجيب وناصر على السلطة باسم الجيش وأمروا الملك بالتنازل عن العرش ومغادرة مصر . وقد تردد فاروق أول الأمر على أمل أن يتدخل الجيش البريطاني لانقاذه ، ولكنه عندما أدرك أنه لا أمل في مناصرة من هذه الناحية قبل مطالب نجيب ، وفي مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ غادر الاسكندرية آخر حاكم من

سلالة محمد علي من ظهر المخت الملكي وسط فرح عارم من رعاياه .

وقد بقى الجيش بعيــدا من الحكم خــلال الاســابيع الستة الأولى ، واستمر على ماهر رئيسا للوزراء . ولكن في سبتمبر وضع ناصر نهاية لهذا التناقض . فتقلد نجيب رئاسة الوزارة ومنصب القائد الاعلى ، ووضعت جميع السلطة في أيدي لجنــة الاثنى عشر التي سميت مجلس قيادة الثورة ، وعندما استتب الأمر بالتدريج لحكام مصر الجدد الغيت الاحزاب الســياسية القديمة واعتقل زعماؤها وحلت محلها هيئة التحرير . ثم الغيت الملكية رســـــميا في يونيو ١٩٥٣ ، واصبحت مصر جمهورية برئاسة نجيب الذي تولى رئاسة الوزارة ايضا ، وناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية .

بعد توطدت الآن دعائم نظام الحكم الجديد الى البعد الذي يسمح باستئناف المفاوضات حول القــواعد في منطقة قناة السويس ، وقد بداوا بالتخلي عن دعوى السيادة على السودان وهو ما كان فاروق يصر عليه ، فانتهزت بريطانيا الفرصة لكي تنهي وصـــايتها على السودان وتعترف باستقلاله . ولكنها اخفقت في انتهاز نفس الفرصة لوضع نهاية لاحتلال منطقة القناة وعادت الى مماطلاتها الســـابقة . فكان رد مصر هو استئناف الهجمات الفدائية على القوات البريطانية . وتجمد الموقف حينا ، ثم زاد تعقدا بالصراع على السلطة الذي قام بين ناصر ونجيب ، الذي بدا انه اقل رغبة في أن يكون رئيسا صوريا مما توقع مجلس قيادة الثورة وكان يقود حملة لاجراء انتخابات في تاريخ مبكر . وبينمـــا يبدو هذا ديمقراطيا فان مجلس قيادة الثورة كان يعرف ان نتيجته

ستكون عودة الاحزاب السياسية القديمة الى الحكم .
وبدلا من السماح بحدوث هذا ؛ فقد قرر ناصر في
فبراير ١٩٥٤ انه ينبغي له أن يظهر علنا ويتقلد رئاسة
الوزراء ، وقد ترك نجيب رئيسا للجمهورية . ولكن لم
تمض ثلاثة ايام على اعلان هذه التغييرات حتى قامت
المظاهرات في القاهرة تطالب باعادة نجيب واضطر
البوليس الى اطلاق النار على الجماهير . وعند هذه
النقطة اذعن ناصر الاتجاه الرسمي الذي سوف يستعمله
فيما بعد في ازمات اكبر عرضت له في زعامته ، فقلد
نجيب رئيسا للوزراء . واعلن ناصر ان الثورة قد انتهت
وان المجلس سوف يعود الى الثكنات وسوف تجرى
الانتخابات وتعود الحياة السياسية الى ما كانت عليه
من قبل . وبعبارة اخرى سوف يسمح بانتخاب الوفد
والعصابة القديمة وسوف تكون نجيب اداة عودتهم .

كانت الخدعة مطابقة لما رسمه ناصر . فقد عاشت
مصر في دوامة مدى ستة اسابيع . واذاع مجلس قيادة
الثورة نجيب بمثابة اداة السياسيين القدامى . واضربت
النقابات وطالبت بمقاطعة الانتخابات . وقامت مظاهرات
ضد المغتصب ناصر ، وكان لنجيب مؤيدوه ايضا
ومعظمهم من طلاب جامعة القاهرة . ولكن بحلول منتصف
ابريل كان واضحا ان انصار مجلس قيادة الثورة كانوا
هم الاقوى بكثير . فرضي نجيب بما لابد منه وقبل ان
يصبح رئيسا للدولة بلا سلطة وان يكون في الواقع مجرد
الاقامة في قصر عابدين ، وعاد ناصر الى رئاسة الوزارة
باعتباره حاكم مصر الفعلي ، واعلن انه لن تجرى
انتخابات لمدة ثلاث سنوات .

وسرعان ما استقر راي الحكومة البريطانية على الامر

على ان متطلباتها الاستراتيجية تحتاج الى اعادة توزيع قوات بريطانيا المقاتلة في جيوب صغيرة متنقلة حول البحر الابيض المتوسط بدلا من تركيزها في منطقة القناة. ثم وفدت الى القاهرة في سبتمبر ١٩٥٤ لعقد المعاهدة الانجليزية المصرية التي وافقت بريطانيا بمقتضاها على سحب جميع قواتها من القناة . وقد تسلمت مصر نصف القواعد ، حتى يتولى مقاولون مدنيون بريطانيون ادارة النصف الآخر على أساس انها مخازن ووورش لخدمة المعدات البريطانية . وفي موجة الفرح الشامل بأن تراب مصر سوف يطهر أخيرا من القوات الأجنبية ، استبعد ناصر القوة الكاذبة لعزل نجيب كلية ، وتقلد هو نفسه في نوفمبر رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة .

هكذا أصبح ناصر الحاكم الأعلى في مصر ، وفي خارج مصر بدأت مكانته تزداد كزعيم ثورة جديدة ورمز كرامة جديدة عن طريق استقلال كافة العرب .

الفصل التاسع والعشرون :

الجمهورية العربية المتحدة والمنفصلة

كان المفروض ان تكون معاهدة ١٩٥٤ عهدا جديدا من التفهم المتبادل بين بريطانيا ومصر ، ولكن منذ البداية تحول شهر العسل الى مرارة . فقد رفضت بريطانيا تزويد ناصر بالاسلحة التي كان يحتاج اليها بدعوى ان الدول الغربية تعمل على حفظ التوازن في شحنات الاسلحة بين العرب واسرائيل ، وهكذا اعلن ناصر في سبتمبر ١٩٥٥ بين ارتياح العالم الغربي انه سوف يشتري الاسلحة من الكتلة الشيوعية . ومنذ ذلك الحين تحركت الاحداث بسرعة مخيفة نحو صدام مباشر بين مصر وبريطانيا . فقد كان السير انتوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا قد رأى ان يد ناصر وراء كل نكبة تصيب بها بريطانيا في الشرق الاوسط . ولكن الحقيقة ان عبد الناصر كان اكثر اهتماما بالاصلاح الدستوري والتنمية الاقتصادية في مصر منه باثارة المتاعب المزعومة. ففي يناير ١٩٥٦ اعلن الدستور الجديد ، وبعد ذلك بخمسة شهور انتخب ناصر بالاجماع رئيسا للجمهورية والسلطة التنفيذية ، وفي ميدان الاقتصاد كان اكثر مشروعاته طموحا هو مشروع اقامة سد جديد على النيل جنوبي اسوان بهدف زراعة ملايين الافدنة الصحراوية

المنطقة وتوفير قوة كهربائية لاقامة صناعات جديدة في مصر . وكانت امريكا وبريطانيا بالاشتراك مع البنك الدولي قد عرضت المساعدة في تمويل هذا المشروع الضخم الحيوي ، سحبت لاية عروض من جانب روسيا . ثم فجأة اعلن فوستر دالاس وزير خارجية امريكا في ١٩ يوليو ١٩٥٦ ان حكومته الغت مساهمتها في السد العالي ؛ ولم تلبث بريطانيا ان اقتدت بها . فلم يمض اسبوع حتى اعلن ناصر ازاء ما رأى انه محاولة للضغط عليه لرفع الحصار المفروض على اسرائيل تأميم الشركة الانجليزية الفرنسية لقناة السويس .

كان رد الفعل من جانب بريطانيا وفرنسا عنيفا . فقد حشدت في البحر الابيض المتوسط قوة مشتركة كبيرة من الوحدات البرية والبحرية والجوية . وبذلت محاولات دولية جاهدة لوضع القناة تحت اشراف هيئة دولية زاعما بأن مصر لن تستطيع ادارة القناة بنفسها ؛ ولكن سرعان ما ثبت بطلان هذا الزعم ازاء ازدياد حركة المرور في قناة السويس التي ارتفعت الى ارقام قياسية تحت اشراف الادارة المصرية .

وعلى الرغم من قبول مصر للاتفاق الذي تم التوصل اليه في مقر الامم المتحدة بنيويورك بين وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا ومصر والذي يقضي بقيام ما سمي بجمعية المنتفعين بقناة السويس بتحصيل رسوم المرور وتخصيص الايراد لهيئة القناة المصرية الجديدة — على الرغم من هذا فان الحكومة الفرنسية كانت مصممة على الدخول في مواجهة مع الرجل الذي عدته مسئولا عن كل متاعبها في شمال افريقية وخصوصا الجزائر ، وهكذا اعدت في السر خطة لقيام اسرائيل بغزو سيناء على ان

تتدخل فرنسا للاستيلاء على القناة بدعوى حمايتها من أضرار الحرب . وسارعت بريطانيا في الشروع الفرنسي عندما غزا الاسرائيليون الارض المصرية في ٢٦ اكتوبر ١٩٥٦ ، فكانت بالطائراتها لتقابل على المطارات المصرية وانزال قواتها في بور سعيد وفي منطقة القناة هي التي عرفت بذلك اتفاقية عام ١٩٥٤ مع مصر .

ولكن هذا العمل العدواني اخفق في القضاء على ناصر . فان ضغط الرأى العام العالمي في الجمعية العامة للامم المتحدة لجأ على الشدة وفرض انسحاب القوات الانجليزية والفرنسية والاسرائيلية التي استولت على منطقة القناة وشبه جزيرة سيناء ، وهكذا اصبح ناصر بطلا في اعين العالم العربي كافة ، وغدا اسمه مرادفا للانتصار على الامبريالية .

وبنهاية عام ١٩٥٧ كان نفوذ ناصر قد بلغ الذروة ، خصوصا في سوريا . كانت سوريا منذ عام ١٩٤٦ تهزها سلسلة من الانقاصات السياسية والانقلابات لم يكن آخرها ثورة اديب الشيشكلي الذى حكم خمس سنوات وجاء سقوطه نتيجة ثورة عسكرية قام بها الجيش الذى اعاد شكرى القوتلي رئيسا للجمهورية ، وظل الجيش يشغل مقعدا خلفيا مدى أربع سنوات .

ولكن سوريا لم تجد الاستقرار الذى كانت تتوقعه بعد سقوط الشيشكلي وعودة الحكم المدني . فان حزب البعث الذي اسسه ميشيل عفلق عام ١٩٤٠ لتحقيق وحدة مثالية تضم سوريا ولبنان والعراق والاردن ما لبث ان بدا يفقد قوته السابقة ، ثم ان البعثيين انقسموا الى مجموعات ثلاث ، واحدة تحبذ الاتحاد مع مصر ، وواحدة تؤيده مع العراق ، والثالثة

تريد الاستقلال عن الاثنين .

وهنا استفادت الشيوعية من هذه الانقسامات ، وعندما سادت سمعة الغرب بعد الهجوم الانجليزي الفرنسي الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ اختار الروس سوريا لتكون أول هدف لهم في خطة التغلغل التي نووا تنفيذها . فراحوا يعرضون تقديم الأسلحة والمعونة الفنية ، وخصصت تلك عدد من الشيوعيين المعروفين مناصب كبيرة في الحكومة ؛ بدأ عبد الناصر والنصارى في دمشق يدركون ان سوريا في خطر من ان تصبح تابعا لروسيا . وفي نفس الوقت بدأت مكانة ناصر تقترب من اوجها ولا سيما في الجيش السوري . وفي أول فبراير ١٩٥٨ وقع شكري القوتلي هو وناصر على اتفاق وحدة بين مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة . وانتخب ناصر على الاثر رئيسا للوحدة .

بدا الآن أن زعامة ناصر للعالم العربي قد تأكدت ، وعندما قضى عبد الكريم قاسم في نفس السنة على الملكية العراقية وعلى نوري السعيد الخصم العربي الرئيسي لناصر ، بدا ان الجمهورية العربية المتحدة قد تضم بعد قليل منطقة الهلال الخصيب .

ولكن عبد الناصر لم يحسب حسابا للاختلاف الواسع بين المصريين وشعوب سوريا والعراق . فخلافا للمصريين الذين تقوم حياتهم الزراعية والاجتماعية على الاستقرار والوئام بين الحاكم والمحكوم ؛ كانت تقاليد السوريين والعراقيين نابعة من الحياة القبلية حتى أصبحت خليطا غريبا من الاقطاع والديمقراطية . وإذا كانت ظروف مصر من حيث الثروة كانت مركزة في أيد قليلة

سببا قد انتفضت النابهم ، فلن سوريا كانت تضم الالوف من صغار الرأسماليين الذين يستثمرون مدخراتهم في الصناعة ، كما ان التجار السوريين وارباب المهن منتشرون في أرجاء العالم العربي الى جانب اللبنانيين والفلسطينيين حيث يديرون ويملكون أعمالا من كل نوع وحجم ، وهكذا فعندما أعلن ناصر تأميم الصناعة في سوريا كما في مصر ، حدثت معارضة عنيفة في دمشق ، حيث أصبح الالوف من صغار الرأسماليين والمدخرين مهددين بضياع مدخراتهم ، يضاف الى هذا ان عبد الناصر أعلن في اغسطس ١٩٦١ سحب جميع الوزراء السوريين من دمشق الى القاهرة حيث يدار حكم سوريا في المستقبل . ولقد بدا هذا شيئا كثيرا جدا بالنسبة الى الموالين لمصر ، فتسلم بعض الوزراء استقالاتهم ، وانتهى الامر بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة .

وفي تونس ايضا جعل ناصر من الحبيب بورقيبة عدوا لدودا بمنح الحماية والتأييد الادبي لعدوه اللدود صالح بن يوسف ، وفي الاردن والسعودية كانت انشطة انصاره ضد حسين وسعود محل الاشادة من راديو القاهرة .

لكن من بين جميع الذين جعلهم ناصر اعداء له كان اخطرهم عبد الكريم قاسم في العراق ، فبعد الثورة بشهور قليلة بدأ قاسم يشك في ان مساعده الايمن عبد السلام عارف يتآمر مع ناصر ، فطرد عارف على الفور ، ولكن في أوائل عام ١٩٥٩ قامت ثورة موالية لمصر في وحدات الجيش العراقي بمنطقة الموصل . وبعد قمع الثورة اعلن قاسم ان عبد الناصر هو العدو رقم ١ في العراق ، واشتدت الحملات بين البلدين الى درجة لم تبلغها من قبل . وكان من حسن حظ ناصر والعالم العربي ان

سياسة قاسم الموالية للشيوعيين انقلب الجيش ، وفي فبراير ١٩٦٣ وقع انقلاب في العراق أطاح بقاسم واقام حكومة برأسها عارف .

بعد ذلك بشهر انتهى الجيش السوري الى العراق وأخرج الانفصاليين من الحكم ، وهكذا ، مع الانقلاب الموالي لمصر في اليمن والذي اطاح في سبتمبر ١٩٦٢ بالامامة البالية ، ومع تقلد احمد بن بيلا لرئاسة الوزارة في الجزائر في نفس السنة — بدا ناصر مرة اخرى يتمتع بتأييد شعبي واسع النطاق بين العرب ، وتتويجا للعملية ، وافقت مصر وسوريا والعراق في ابريل ١٩٦٣ على اقتراح سوري باقامة ما سمى بالاتحاد الفيدرالي بين البلاد العربية الثلاثة ، تكون له سياسة خارجية مشتركة ونظام دفاعي موحد .

على أنه مهما يكن من مصير حركات الوحدة والانفصال المتكررة بين الدول العربية ، فهناك مجال استطاع ناصر أن يمارس فيه تأثيره ومكانته وأن يلعب دورا بارزا كزعيم للملايين في المنطقة ويسكر معى في افريقيا وآسيا ، الا وهو توجيه سياسة مصر الخارجية على طريق الحياد ، بعيدا عن اي التزام حيال كتلتي العوتين الأعظم . فمنذ أن نجح ناصر تخليص مصر من تابعه القوات البريطانيه ، كان مقتنعا بانه لابد لمصر من انتهاج سياسة الحياد مهما سبب له هذا المسلك من متاعب من ناحية الحصول على اسلحة من الغرب ، لانه بدون الحياد لا يمكن أن يكون هناك استقلال حقيقي ، وبعد لقائه الاول مع المارشال تيتو : الذي اتخذ ناصر من تجربته الاشتراكية في يوغوسلافيا نموذجا للنظام الاقتصادي في مصر ، عرف أن الحياد يمكن الافادة منه جيدا . ذلك انه ما دام تبلو

قد استطاع أن يفيد من المنافسة بين الغرب والشرق دون أن يتورط مع إحدى الكتلتين الشيوعية أو الغربية ؛ كان هذا في مقدور مصر أيضـــا ، وهكذا استطاع ناصر باستغلال التهـــديد الشيوعي لأوروبا والعراق منذ عام ١٩٥٨ ، وبهيمنته العسكـــرية على قاسم ، إقناع الولايات المتحدة بمساعدته كدرع ضد الشيوعية في الشرق الأوسط ، وأن يحصـــل في نفس الوقت على معونة عسكرية وفنية من الاتحاد السوفييتي لتعزيز قواته وبناء السد العالي .

ونقلا عن ذلك كان عبد الناصر بعد مؤتمر الشعوب الأفرو ـ آسيوية في باندونج عام ١٩٥٥ ، تصور دور مصر في الشئون العالمية على أنه دور أولي : لا للدول العربية فحسب ، ولكن كذلك العالم المحايد بأسره في أفريقيا وآسيا ، ومنذ ذلك الحين ركز اهتمامه على قارة أفريقيا الناهضة ، وهكذا فتحت جامعة القاهرة الأبواب واسعة للطـــلاب الأفريقيين ؛ وأنشيء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية للعمل على نشر الإسلام في الدول الأفريقية . والحق أنه ما من بلد أفضل من مصر موقعا من النواحي السياسية والجغرافية لتحقيق النجـــاح في بلوغ هذه الغاية ، إذ هي المعبر البري بين أفريقيا وآسيا ، وتراثها التعليمي والثقافي والروحي هو بمثابة مغناطيس قوي لجذب اللاجئين في المنطقة في القـــارة الفخمة ؛ وهي رسالة إرشـاد جليلة ، وعامل استقرار كبير في المعترك الدولي الراهن .

●

فهرس

صفحة

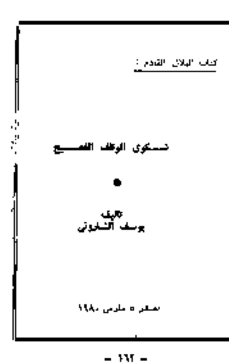
القسم الرابع : المحنة والنصر

القسم الخامس : التفوق التركي

القسم السادس : ريح التغيير

القسم السابع : سراب الحرية





كتاب الهلال القادم :

شكوى المواطن الفصيح

●

تأليف
يوسف الشاروني

يصدر ٥ مارس ١٩٨٠

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7 Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 894
Caixa Postal 3406,
San Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

الجزء الثاني

انتوني ناتنج سياسي انجليزي اشتهر بالصدق والوقوف الى جانب الحق والعدالة في الرأي ، وعندما وقع الاعتداء الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ احتج على ذلك العدوان واستقال من وظيفته وكان وزيرا للدولة للشئون الخارجية في وزارة انتوني ايدن ، ولم يغفر اليهود له موقفه الى جانب مصر والعرب فحاربوه ولكنه لم يبال بهم واصدر كتابه « العرب » وقص فيه تاريخ العرب بأسلوب سهل موجز ممتع بادئا من العصر الجاهلي ومنتهيا الى العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ .

وفي الفصول الخاصة بالعصر الحديث وقف ناتنج الى جانب الحق العربي وكشف مخططات اليهود بالتآمر مع قوات الاستعمار لانتزاع فلسطين من ارض العرب وتسليمها لليهود بالخداع والكذب ، كل ذلك في اسلوب علمي دقيق مؤيد بالوثائق لهذا اختار الهلال هذا الكتاب ليقدمه الى قراء العربية على جزءين .

وهذا هو الجزء الثاني .

